باب الأسئلة والفتاوى

فى الرضاع

جاء الى لجنة الفتوى بالجامع الأزهر الاستفتاء الآتى :

تزوجت من ابنة عمتى وبعد دخولى بها ومعاشرتها وصل الى علمى أنى رضعت من جدتى لأبى (أم عمتى) بعد أن توفيت والدتى وكان الرضاع بعد الفطام والاستغناء عن اللبن بالطعام مع ملاحظة الشك فى الرضاع هل هو فى مدة حولين أم لا ؟

والذى أخبرنى بكل هذا هو جدتى المرضعة لى الآن . فهل الرضاع هذا بعد الاستغناء بالطعام والفطام يحرم ولو كان فى الحولين ؟ وهل يثبت التحريم بشهادة امرأة واحدة أو لا بد من شهادة عدلين ؟ محمد الشيخ

الجواب :

إن هذا الرضاع فيه ثلاث اعتبارات تجعله لا يحرم إجماعا .

فأولا — أنه لم يشهد به إلا امرأة واحدة ، وهذا يجعله غير محرم عند الحنفية والمالكية والشافعية .

وثانيا — أنه قد شك فى حصوله فى الزمن الشرعى المقدر للرضاع ، وهذا يجعله غير محرم عند الحنفية والحنابلة والشافعية .

وثالثا — أنه قد حصل بعد الاستغناء بالطعام ، وهذا يجعله غير محرم عند المالكية ووافقهم على ذلك الحنفية فى أحد قولين قويين .

وعليه ، ترى اللجنة أن هذا الرضاع لا قيمة له ، ولا بأس على الزوج أن يستمر على زوجيته بهذه الزوجة عند المذاهب الأربعة . والله أعلم ؟

رئيس لجنة الفتوى

محمد عبد اللطيف الفحام

صفحات مختارة لأقطاب الفلسفة المعاصرة

لم كان الدين هو الكوة التي ينبع منها النور للانسان ؟

بيان ذلك للفيلسوف أجوست سباتييه نفسه

انتهينا من ترجمة البحث الفلسفي الجليل لموضوع الدين من كتاب (فلسفة الدين) للعلامة أجوست سباتييه ، مدرس الفلسفة بجامعة باريس ، الى قوله : « الدين هو الكوة التي ينبع منها النور للانسان من خلال الصخور المطبقة عليه » ، ونعمد اليوم الى ترجمة ما ساقه من الأدلة الفلسفية على ذلك ، قال :

« لم يكن الدين هو الكوة التي ينبع منها النور للانسان وهو على أشد ما يكون من الشعور بالحرج وبالتضاد فى حياته الباطنة ، لأنه يحمل إليه حلا نظريا لتلك المسألة . لا ، ولكن المخرج الذى يؤتينا به الدين من تلك الحيرة ، ويقترحه علينا ، هو من القبيل العملى ، لا من طريق معلومات جديدة . أى باعادتنا الى الأصل نفسه الذى تتصل به ذاتنا ، وذلك بواسطة عمل أدبى من إحياء الثقة فى نفوسنا بذلك الأصل الذى نشأت منه الحياة ، وبالغاية التى تنتهى إليها . ومع ذلك فان هذا العمل المنجى لا يفرضه الدين علينا من طريق الالزام ، ولكنه ينشأ فينا من ناحية الضرورة . فان التمسك بالحياة ليس بشىء غير غريزة حفظ الذات فى العالم الطبيعى ، وهو يؤثر فى العالم العقلى على الأسلوب نفسه . فهو صورة سامية لتلك الغريزة . ذلك أنها عمياء وجبرية فى الكائنات الحية ، ولكنها تصطحب بالوعى والارادة فى الحياة الأدبية . وهى باستحالتها هذه تظهر على صورة الدين فى النوع البشرى .

« هذا الاندفاع وراء حفظ الحياة لا يحدث فى الفراغ ، ولا هو مجرد من غاية . لأنه يستند على إحساس ملازم للوعى الشخصى ، وهو الشعور بتبعية الانسان للكائن العام . فمن الذى فى وسعه أن يهرب من الشعور بهذه التبعية المطلقة ؟ ليس ما قدّر علينا قد بث فينا خارجا عنا وفى غيبتنا فحسب ، بواسطة النواميس العامة لحركة التطور الوجودية ، فظهرنا فى ناحية من الأرض فى زمان مّا موقرين بموروثات وقوى لم نستشر فيها ولم نخترها ؛ ليس هذا فحسب ، ولكننا لعدم وجداننا علة وجودنا فى أنفسنا ، وفى أى مجموعة من الكائنات الأرضية ، اضطررنا للبحث عن السبب الأول لوجودنا ، وعن الغاية الصميمة لذاتنا ولحياتنا ، خارج أنفسنا فى الكائن الأول نفسه . فلأجل أن يكون الانسان متدينا يجب عليه قبل كل شىء أن يعترف

وأن يرضى ، فى ثقة وبساطة وخضوع ، بتبعية وجودنا الشخصى للاصل الأبدى الذى نشأ منه وبارتباطه به ؛ وأن يريد أن يكون ضمن نظام الحياة ومتكافلا معه . فهذا الشعور بتبعيتنا يهبنا القاعدة العملية التى لا تقبل التلاشى للعقيدة بوجود الخالق . وهذه العقيدة يمكن أن تبقى فى عقولنا غير محدودة ، وقد تلبث غير بالغة حدها الأقصى من الكمال ، ولكن موضوعها لايزايل ضميرنا قط . وقد أُلقيت هذه العقيدة فى روعنا ، بل فُرضت علينا فرضا قبل إجالة أى فكر أو نظر فى أى تحديد معقول . وعلى هذا فيمكن وضع هذه المعادلة الفلسفية بدون تهيب وهى : إن الشعور بتبعيتنا هو الشعور بوجود الله فينا . هذا هو الينبوع العميق الذى تفجرت منه عقيدة وجود الله عندنا بقوة لا يمكن دفعها ، ولكنها نبعت منها هى والدين فى آن واحد ، وبتأثير الدين نفسه .

« ومع هذا يجب أن نقدِّر بأى ثمن قَبِل فكر الانسان هذه التبعية حيال الأصل العام للحياة . فقد رأينا أن هذا الفكر قد ثار على الأشياء الخارجية ونازعها ، لأن هذه الأشياء من طبيعة مغايرة لطبيعته ، ولأن الصفة الخاصة للفكر هى أن يَفهم وأن يتسلط وأن يقود الأشياء لا أن يخضع لها . فمن الذى لا يذكر فى هذه المناسبة عبارة باسكال : « ليس الانسان إلا قصبة واهية ، فهو أضعف شىء فى الوجود ، ولكنه قصبة مفكرة . فاذا كان الوجود يستطيع تحطيمها ، فانها مع ذلك أسمى منه ، لأنها تعرف أنها تتحطم ، وتعلم أن الوجود أقوى منها ، والوجود فى غفلة عن هذا كله » ؟ فمن أجل هذا ليس فى الوجود المادى أصل للسيادة يمكن أن يخضع له الانسان . إن العظمة السامية للعقل حيال مجموع الأشياء لا يمكن الاحتفاظ بها للنهاية فى شخصيتنا المؤقتة ، إلا بعامل من الثقة والاتحاد الصميم بروح الوجود . فإن ضميرى لا يستطيع أن يحكم بتبعيتى أنا والوجود فى حالة وفاق ، إلا بقوة روحية أدركت أن لها فى الكائن العام أصلا مشتركا وغاية واحدة . وديكارت لم ينخدع فيما قرره ، فان محاولة الفكر الانسانى أن يثبت لنفسه قيمته وعظمته هى عمل دينى فى حقيقته (١) . ودائرة حياتى العقلية التى

---

(١) ينوه هنا بالأصل الذى ارتآه ديكارت الفيلسوف الفرنسى أساسا لفلسفته وهو إثبات الناظر وجوده أولا بدليل لا يقبل النقض ، ثم التدرج الى إثبات ما عداها بعد الشك فيها وتقليبها على كل وجه .

ودليله على إثبات وجوده هو : أنه يفكر ، إذن هو موجود ، لأن ما ليس بموجود لا يفكر . فإذا تم له ذلك ، نظر فيما حوله شاكا فيه حتى يثبته بدليل محسوس قال : « لأجل إن يصل الانسان الى الحقيقة يجب عليه أن يخرج مرة واحدة فى حياته من جميع الآراء التى أخذها عن غيره ، وبناء معلومات لنفسه من جديد مبتدئا من الأسس التى تقوم عليها » .

انفصمت من المنازعة بين شعوري الذاتي والحوادث العالمية ، عادت فالتأمت بواسطة حد ثالث اندرج فيه الاثنان الآخران ، وهذا الحد الثالث هو احساسي بتبعيتها جميعا لله .

***

« أليس هذا الاستنتاج من تحليل عناصر الدين في روع الانسان ، بعيد المدى في الفلسفة والتجريد ، بحيث لا يمكن أن يصح على الناس عامة ؟ فاذا أمكن به تفسير وجود الشعور الديني في عهود الثقافة العلمية العالية ، فهل يُستطاع أن يُفسر لنا به ظهور الدين فيما قبل التاريخ من عصور السذاجة الانسانية ؟

« إن الذين يُدلون بهذا الاعتراض يُثبتون على أنفسهم أنهم لم يروا جيدا استمرار التضاد بين عقل الانسان وحوادث الوجود في أول عهد الانسان بالظهور كما هو في آخره ، وهو التضاد الذي جعل حياته غير مستقرة وفي غاية الشقاء . وغاب عنهم أن هذا التضاد ليس بثمرة من ثمرات المنطق ، حتى إن الانسان لأجل أن يراه ويتألم منه يحتاج أن ينتظر حتى يكون فيلسوفا . ولكنه يتجلى في الأهوال التي تساور المتوحش ، وفي الانقلابات الطبيعية التي تحدث بين يديه ، وفي أخطار الغابات وبوائقها ، كما تتجلى لنا نحن في ارتباكات أفكارنا أمام مساتير الوجود وغوامض الموت . نعم إن مظاهر الكوارث والشعور بها تختلف بين الناس ، ولكن الهزة الدينية التي ترج الانسان وتزلزله ، هي في حقيقتها واحدة لا تختلف . وباسكال على ما كان عليه من علم لم يكن شعوره بالحرج أقل من شعور إنسان العصور الأولى به . ألم يقل : « إن الصمت الأبدي لهذا الفضاء الذي لا نهاية له يرعبني » . وتلميذ (كَنت) وهو محصور في اليأس داخل الحدود التي لا يمكن اجتيازها لعلم الظواهر الطبيعية ، أو تلميذ شوبنهور الذي تأدى الى إدراك استحالة الاتفاق بين العقل والارادة ، ألم يكونا مُبْهَظين (١) تحت آصار الشعور بالعجز الأشد إيلاما للنفس ؟ وعند ما كانا يقلعان عن النظر لأجل أن يستطيعا العيش ، ألم يكونا يشعران على الرغم منهما وقلبهما يطفح بالمرارة والألم ، تكوّن تنهيدة (٢) على شفاههما هي مقدمة للدعاء ؟

***

« وعلى هذا فالدين غير قابل للزوال ، لأن ينبوعه الذي يتفجر هو منه فضلا عن أنه لا يستدّ (٣) ولا ينضب في صميم الروح ، فإنه على نقيض ذلك يتسع ويعمق وتغزر مادته تحت التأثير المزدوج من النظر الفلسفي والتجارب الحيوية المؤلمة . والذين يتوقعون نضوبه يحسبون من الدين ما ليس منه من المظاهر الخارجية الموقوتة . والأزمات الدورية التي تنتابه ويُخشى

(١) مبهظين . من أبهظه الدين بمعنى ثقل عليه وفدحه . ومثله بهظه بفتحتين . (٢) تنهد الرجل ، أخرج نفسه بعد مده حزنا وألما . (٣) استد بمعنى انسد .

أن تأتى عليه بتغييرها لتقاليده وصوره ، لا تدل على ضعفه ، ولـكنها تثبت خصوبته وخاصة التجدد فيه . ولم يُشاهد فى مدى التاريخ كله أن روح البشرية تجردت منه . فعلى هذه الدوحة الدينية التى تصعد عصارتها الالهية على الدوام ، إذا أدرك أوراقها الجفاف لطروء فصل جديد ، فلا تسقط إلا مدفوعة من أعقابها بأوراق غضيضة (١) . فالعقائد الدينية لا تموت ، ولـكنها تتطور وتستحيل ، فليقلع أنصار الدين عن الهلع عليه ، وخصومه عن الفرح بوشك زواله . وما عليه الفريقان من الرجاء والخوف يدل على جهلهم بالأصل الذى يستمد منه الوجود ، وبالقاعدة التى يقوم عليها صرحه . فإذا بحثوا عنه فى سويداء قلوبهم لوجدوه حيا فى وجودهم الباطن بقدر ما تظهر لهم صوره التقليدية فى الخارج مهددة بالزوال . فإن تنَهد النفس ، وتوثبها للنهوض ، أوماليخوليتها وهى فى أشد الضيق ، هى ظواهر أدخل فى الحياة الدينية ، من تلك التقوى المغرضة أو الآلية . إن هنالك لساعات يكون فيها الخروج على الجماعة المصحوب بتألم وبحث ودعاء ، أقرب الى ينبوع الحياة من الجمود العقلى على أرثوذوكسية غير أهل لفهم العقائد فهى تحتفظ بها آثارا مصبرة. فعلى الذين يحتقرون الدين أن يحاولوا معرفة ماهيته أولا ، وأن يدركوا أنه هو الروح الباطن المبارك الذى بواسطته تتطور الحياة الانسانية وتفتح لها مخرجا الى الحياة المثالية ، وأن كل ترق إنسانى يصدر منه وينتهى إليه ، وأن الفن والأدب والعلم نفسه تتصوح زهراتها وتذبل إذا لم يتعهدها هذا الروح العالى وينعشها ، وأن النفس المجردة من الدين تختنق لحرمانها من التنفس ، فالانسان فى الواقع لا يوجد إلا إذا أوجد نفسه ، ولأجل هذا يجب عليه أن يخرج من ظلمات هذا العالم وعلائقه الى النور والى الحرية . فما بدأت الانسانية فى الظهور فيه إلا بالدين ، وبه أيضا تثبت له وتبلغ الى كمالها المنشود » ؟

محمد فريد وجدى

(١) غضضية أى غضة .

الباقيات الصالحات

أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم عائشة رضى الله عنها أن تقسم شاة . فقالت يا نبى الله ما بقى إلا عنقها . فقال عليه السلام : كلها بقى غير عنقها .

وهذا المعنى أخذه شاعر فقال :

يبكى على الذاهب من ماله وإنما يبقى الذى يذهب

إنما يبقى إذا ذهب فى سبيل الله ، وإعانة المحتاجين من عباده ، لا أن يكون قد ذهب اسرافا وبدارا .

بحوث في المسائل الفقهية

تاريخ الفقه الاسلامى فى مصر

— ٥ —

المدرسة الثانية :

وصفنا فيما مضى حال الفقه الإسلامى فى مصر على عهد الصحابة ، وانتهينا الى أن هذا العهد كان بمثابة الإعداد والتهيئة لما بعده من العهود فى تاريخ الفقـه ، فهم رضى الله عنهم ، قـد غرسوا الأصول ، ووضعوا الأسس ، ثم تركوا لمن جاء بعدهم تنمية الغراس ، وتتميم البناء .

ونريد بالمدرسة الثانية هؤلاء العلماء من الرواة والمفتين والقضاة والفقهاء ، الذين تلمذوا للصحابة مباشرة ، أو بواسطة قريبة ، واشتغلوا بالفقـه مادة ، وتخريجا ، وتطبيقا ، وفتيا ، حتى أسلموه الى رجال المذاهب المعروفة فى منتصف القرن الثانى من الهجرة .

فنهم : يزيد بن أبى حبيب ، وجعفر بن ربيعة ، ومرثد بن عبد الله ، وعمرو بن الحارث ، وعبيد الله بن أبى جعفر ، وعبد الله بن لهيعة ، وبكير بن عبد الله الأشجع ، وعبد الله بن وهب ، والليث بن سعد وغيرهم .

وقـد اشتهر من هؤلاء العلماء أربعة كان لهم ، أكثر من غيرهم ، أثر واضح فى الفقـه والرواية والفتيا ، وهم : يزيد بن أبى حبيب ، وعبـد الله بن لهيعة ، وعبـد الله بن وهب ، والليث بن سعد .

١ — يزيد بن أبى حبيب :

فأما يزيد بن أبى حبيب ، فهو بربرى الأصـل ، أبوه من أهل دنقلة ، ونشأ بمصر مولى للأزد ، وكان حليما عاقلا مهيبا كثير الفقه والحديث ، وهو أحد الثلاثة الذين جعل إليهم عمر ابن عبد العزيز الفتيا فى مصر : يزيد ، وعبـد الله بن أبى جعفر ، وهما موليان ، وجعفر بن ربيعة وهو عربى ، ولذلك أنف العرب أن تـكون الفتيا الى الموالى ، فأجابهم عمر بقوله « وما ذنبى إن كانت الموالى تسمو بأنفسها صُعُدا وأنتم لا تسمون ؟ ! » .

وقد قدمنا أن يزيد أول من نشر الفقه بمصر ، وتـكلم فى الحلال والحرام ، وكانوا قبل ذلك يتحدثون فى الترغيب والترهيب والملاحم والفتن ، وكان ليزيد مقام محفـوظ ، ومنزلة

سامية بين المصريين والولاة ، وكانت البيعة إذا جاءت لخليفة ، فأول من يبايع من المصريين عبيد الله بن أبى جعفر ، ويزيد بن أبى حبيب .

وقال ابن لهيعة : مرض يزيد فعاده الحوثرة بن سهل أمير مصر فقال : يا أبا رجاء ، ما تقول فى الصلاة فى الثوب وفيه دم البراغيث ؟ فأعرض عنه يزيد ولم يكلمه ، فقام عنه ، فنظر إليه يزيد وقال : تقتل كل يوم خلقا وتسألنى عن دم البراغيث (١)

وقد لقى يزيد من الصحابة عبد الله بن الحارث بن جزء ، وروى عن سالم ، ونافع ، وعكرمة ، قال ابن سعد : كان ثقة كثير الحديث ، وقال الليث بن سعد : يزيد سيدنا وعالمنا (٢)

ولم تقف شهرة يزيد عند الفقه والحديث ، بل كان عالما بالفتن والحروب وما يتصل بالتاريخ والفتوح ، وقد اعتمد عليه عبد الرحمن بن عبد الحكم فى كتابه « فتوح مصر » ، والكندى فى كتابه « الولاة والقضاة » ، والطبرى فى تاريخه ، وغيرهم (٣) ، وكان من تلاميذه ابن لهيعة ، والليث بن سعد ، وتوفى سنة ١٢٨ هـ

٢ ــ ابن لهيعة :

وأما ابن لهيعة فهو أبو عبد الرحمن عبد الله بن لهيعة (٤) الحضرمى الغافقى ، كان أبوه من رجال الحديث بمصر ، فورث عنه عبد الله حبه للحديث ، وكان شغوفا بتحصيله ، وروايته ، والرحلة فى طلبه .

روى عن عطاء ، وعمرو بن دينار ، والأعرج ، وخلف ، وروى عنه الثورى ، والأوزاعى وغيرهم .

ورجال الحديث يختلفون فيه ، فمنهم من يوثقه ، ومنهم من يضعفه ، فممن وثقه أحمد ابن حنبل ، وكثيرا ما يروى عنه فى مسنده ، وممن ضعفه البخارى والنسائى (٥)

ويقول ابن خلكان : إن ابن لهيعة كان مكثرا من الحديث والأخبار والرواية ، وكان يقرأ عليه ما ليس من حديثه فيسكت ، فقيل له فى ذلك ، فقال : ما ذنبى إنما يجيئونى بكتاب يقرءونه على ويقومون ، ولو سألونى لأخبرتهم أنه ليس من حديثى (٦)

ولم تقف شهرته عند الحديث فقط ، فقد كان فقيها ، (٧) وتولى القضاء بمصر تسع سنين (٨) وأكثر ما ورد فى تاريخ مصر مروى عن طريقه .

ولد ابن لهيعة سنة ٩٦ ، وتوفى سنة ١٦٤ هـ

---

(١) تاريخ التشريع للخضرى بك ص ١٥٨ (٢) فى حسن المحاضرة ص ١٣٤ ج ١ (٣) أنظر كتاب « فى الادب المصرى الاسلامى » ص ٤٢ (٤) فى حسن المحاضرة ص ١٣٤ ج ا : عبد الله بن عقبة بن لهيعة (٥) فجر الاسلام ٢٣٥ (٦) ابن خلكان ٢٤٩ ج ا (٧) حسن المحاضرة ١٣٤ ج ا
(٨) فجر الاسلام ص ٢٣٦

٣ ـ ابن وهب :

أبو محمد عبد الله بن وهب بن مسلم القرشي ولاء ، ولد بعد انقضاء الربع الأول من القرن الثاني ، وكان المسلمون فى ذلك العهد قد أخذوا يفكرون فى التدوين ، فكتب مالك موطأه فى المدينة ، وكتب الأوزاعي مذهبه فى الشام ، وصنف ابن اسحاق فى المغازى .

شهد ابن وهب هذه الحركة ، وكان كثير الرحلة والتغرب فى طلب العلم والحديث ، فلاقى مالكا بالمدينة ، وأخذ عنه ، وذهب الى العراق وأخذ عن علمائه . ثم ألف كتابه « الجامع فى الحديث » ، واختاره من مائة ألف حديث كان يرويها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما جُرِّح منها فى حديث واحد (١) ، ورتب هذا الجامع على كتب : كتاب كذا . كتاب كذا الخ ، وكان هذا الكتاب الجامع مفقودا الى عهد قريب ، ثم عثر على معظمه فى مدينة أدفو ، ويعد من أقدم المخطوطات العربية فى جميع المكاتب والمتاحف بالعالم إن لم يكن أقدمها جميعا ، وهو مكتوب على ورق البردى الذى عرفت به مصر منذ القدم ، ويرجع تاريخ كتابتها الى القرن الثالث الهجرى » (٢) .

ومن الغريب أنه كان يروى عن ابن لهيعة مع ما اشتهر عنه من الدقة والعناية فى الرواية .
فأنت ترى أنه من أوائل المشتغلين بجمع الحديث فى الاسلام ، وكان الى جانب ذلك فقيها بارعا ، جيد الفقه ؛ قال ابن خلكان . إن مالكا كان يكتب الى ابن وهب « الى عبد الله بن وهب المفتى » ولم يكن يفعل هذا مع غيره ، وقال ابن يونس : جمع ابن وهب بين الفقه والرواية والعبادة .

ويعده المالكية من فقهائهم ، وقد عده السيوطى بين المجتهدين المصريين ، وقال عنه إنه تفقه بمالك والليث بن سعد ، وإنما ذكرناه فى رجال هذه المدرسة لأنه من أوائل المشتغلين بالحديث كما علمت .

٤ ـ الليث بن سعد :

هو أشهر رجال هذه المدرسة ، بل هو قرين مالك والشافعى وغيرهما من أصحاب المذاهب ، بل قال عنه الشافعى إنه أفقه من مالك إلا أن أصحابه لم يقوموا به ، والشافعى تلميذ مالك ، فشهادته فى هذا خطيرة !

ويروى أن ابن وهب كان يقرأ عليه مسائل الليث بن سعد فمرت به مسألة ، فقال رجل من الغرباء : أحسن والله الليث كأنه كان يسمع مالكا يجيب فيجيب هو ، فقال ابن وهب

(١) الكواكب السيارة ٤٥ (٢) كتاب « فى الادب المصرى » ٣٩

للرجل : بل كان مالك يسمع الليث يجيب فيجيب هو ، والله الذى لا إله إلا هو . ما رأينا أحدا قط أفقه من الليث ، وقال سعيد بن أيوب : لو أن مالكا والليث اجتمعا كان مالك عند الليث شبه أبكم ، ولباع الليث مالكا فيمن يريد !

وقد نشأ هذا الإمام المظيم بمصر فى أواخر القرن الأول للهجرة ، وتثقف على علمائها الأعلام ، وطوف فى الآفاق طالبا العلم والحديث ، ولقى كثيرا من التابعين وأخذ عنهم ، ومن تلاميذه عبد الله بن المبارك ، وهاشم بن القاسم ، ويونس بن محمد ، وعبد الله بن وهب ، وأشهب وغيرهم .

وكان الليث الى جانب العلم والفقه كريما ثريا ، يتخذ لأصحابه الفالوذج ويضع فيها الدنانير فمن أكل أكثر من صاحبه ناله دنانير أكثر .

وكان يأخذ بنصيبه من زينة الدنيا غير متزمت ، ولا رافض ما أحل الله له : كتب إليه مالك يقول « بلغنى أنك تأكل الدقاق ، وتلبس الرقاق ، وتمشى فى الأسواق » فأجابه الليث « قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق » ؟

وقد رفعته منزلته العلمية ، وثروته المالية ، ونفسه الكريمة الى مصاف العظماء فى زمانه حتى قيل إن القاضى والوالى كانا من تحت أمره ومشورته لا يقطعان أمرا إلا بعد أن يرى هو فيه رأيه ، وكان اذا رابه من أحد شيء كاتب فيه فيعزل ، وقد أراده المنصور على أن يوليه إمرة مصر فامتنع ، وتوفى الليث سنة ١٧٥ هـ .

وكان بينه وبين مالك بن أنس مراسلات ومساجلات فقهية تدل على براعته الفقهية ، وربما كشفت بعض النواحى من مذهبه الذى اندثر ، ولم يبق منه إلا أقوال مبعثرة فى بطون الكتب .

وسنحاول الكشف عن ذلك إن شاء الله فى حديث بعد هذا الحديث ؟

محمد محمد المدنى
المدرس بكلية الشريعة

أغرس تستثمر

قال حكيم : من غرس العلم اجتنى النباهة ، ومن غرس الزهد اجتنى العزة ، ومن غرس الاحسان اجتنى المحبة ، ومن غرس الفكرة اجتنى الحكمة ، ومن غرس الوقار اجتنى المهابة ، ومن غرس الكبر اجتنى المقت ، ومن غرس الحرص اجتنى الذل ، ومن غرس الطمع اجتنى الكمد .

والنباهة فى الفقرة الأولى معناها الشرف والشهرة .

حياة رجالات الإسلام

عبد الله بن الزبير

موقفه من الخلافة الاسلامية

فى سيرة عبد الله بن الزبير مواطن لاختبار معدن الرجولة جدير بشباب المسلمين ان يمعنوا النظر فيها حتى يتخذوا لهم منها أسوة وإماما ، وحتى يصنعوا على ضوئها مثلهم العليا فى هذا العصر الذى لا يدين إلا للقوى الحازمة ، والعزائم الصادقة ؛ وسيرة عبد الله تحبب الى عقولنا أيام المحن ، وإن كرهتها غرائزنا وعواطفنا ، لأنها مصانع للبطولة التى تبنى تاريخ الأمم على قواعد المجد والعزة .

ولد عبد الله بن الزبير ، وشب ، واكتهل ، وعاش ما عاش فى أيام نضال كان الموت فيها أهون ما يلقى الرجل ، ولم يكن عبـد الله ليحجم عن خوض عيلم الاحداث ، وقد نهد بين آذيها ، وترعرع فى لججها ، يشهد أهوالها ، ويقتحم عبابها بما يحمل بين حنايا نفسه من مميزات البطولة التى تعده لمستقبل حافل بعظائم لا يقوم لها إلا آحاد من الناس يأتون فى أجيال متعاقبة ، تضربهم الحياة مثلا لخصائص الرجولة فى الانسانية الحية القوية .

ومن الطبيعى أن يكون عبد الله وفيا أشد الوفاء الى عهد عثمان رضى الله عنه ، لأن ذلك العهد هو المدرسة الأولى التى شهد فيها أبو خبيب نبوغ نفسه وعبقريتها ، وكانت منها أولى خطواته الى تحقيق ما يطمح اليه من عليا الأمور وسامياتها ، فقد كانت سفارته ببشرى فتح أفريقية الى عثمان ، وخطبته التى قام بها يقص قصة الفتح ، ويصف جند المسلمين على جمهرة من مشيخة المهاجرين والأنصار ، فيهم أبوه ، مطلع شمس ما كانت تنطوى عليه نفسه من بطولة جياشة بالآمال .

لم تـكد بوادر الفتنة العثمانية تلوح فى أفق المجتمع الاسـلامى حتى كان عبد الله بن الزبير قائد أبطال الشباب فى الدفاع عن الخليفة ، ولما اشتد الحصار اخترط سيفه وأخذ بباب عثمان يقاتل عنـه على رغم ما كان يرى من تباعد أبيه عن حزب الخلافة فى ذلك الوقت ، وعلى رغم ما كان يسمع من خالته أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها من نقـد سياسة عثمان وحاشيته ، ولـكن ابن الزبير لم يكن بالشـاب الذى ينقاد طيعا لغـيره ، بل كان الرجل المعتد بنفسه ، المستقل بتفكيره ، يبنى على حاضره مستقبل حياته .

وكان له على أبيه سلطان قوى جعله ينأى بجانبه عن خؤولته الهاشمية ، وينحاز الى جانب الأمويين ، وفى ذلك يقول على بن أبى طالب رضى الله عنه : « ما زال الزبير رجلا منا أهـل البيت ، حتى أدركه ابنه عبد الله فلفته عنا » ، وقد أقر الزبير نفسه بهذا السلطان عليه ، فقد روى صاحب العقـد : أن رجلا سأل الزبير بعد مقتل عثمان رضى الله عنه فقال له : ما بالك يا أبا عبد الله ؟ فقال الزبير : مطلوب مغلوب ، يغلبنى ابنى ، ويطلبنى ذنبى . وبهذا السلطان غلب على خالته أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها ، وأخرجها لحرب علىّ وحزبه ، وقد كان بعض أكابر الصحابة يشعرون بهـذا السلطان له عليها ، روى أبو عمر بن عبد البر فى الاستيعاب : « أن عائشة رضى الله عنهـا قالت : إذا مر ابن عمر فأرونيه ، فلما مر ابن عمر قالوا : هـذا ابن عمر ، فقالت : يا أبا عبد الرحمن ما منعك أن تنهانى عن مسيرى ؟ قال : رأيت رجلا قـد غلب عليك ، وظننت أنك لا تخالفيه — يعنى ابن الزبير — قالت عائشة : أما إنك لو نهيتنى ما خرجت ، وبهـذا السلطان قدمته على أبيه فى الصلاة فصلى أبوه خلفه ، فقيل له فى ذلك ؟ فقال : « أما صلاتى خلف ابنى ، فانما قدمته عائشة أم المؤمنين » وبهذا السلطان قاد الرّجالة فى وقعة الجمل ، ثم صارت اليه القيادة العامة بعد رجوع أبيه عن الحرب ، روى أن ابن الزبير دخل على عائشة رضى الله عنهما فقال لها : « يا أماه ، ما شهدت موطنا فى الشرك ولا فى الاسلام إلا ولى فيه رأى وبصيرة غير هـذا الموطن ، فانه لا رأى لى فيه ولا بصيرة » ثم قال لابنه عبد الله : « عليك بحربك ، أما أنا فراجع الى بيتى » فقال عبد الله : الآن حين التقت حلقتا البطان ، واجتمعت الفئتان ؟ والله لا نغسل رءوسنا منها ! فقال الزبير لابنه : لا تعد هذا منى جبنا ، فوالله ما فررت عن أحد فى جاهلية ولا إسلام ، قال : فما يردك ؟ قال : يردنى ما إن علمته كَسَرك ، فقام بأمر الناس عبد الله بن الزبير ، وكان حريا بهذا ، فهو من أشجع الناس وأصبرهم على لأواء الحرب ، وكان أحب الناس الى خالته عائشة ، روى ابن حجر فى الاصابة : أن عبـد الله أخذ من وسط القتلى يوم الجمل وفيـه بضع وأربعون جراحة ، فأعطت عائشة البشير الذى بشرها بأنه لم يمت عشرة آلاف .

انتهت هذه الحروب ، واستقر الأمر لمعاوية رحمه الله تعالى ، وقد أراد فى آخر حياته أخذ البيعة لابنه يزيد من بعده ، ولم يكن يخشى أحدا أكثر ماكان يخشى عبادلة الاسلام والحسن والحسين ، فأخذ يعد للأمر عدته ، ويستوحى دهاءه وسياسته ، ورأى أن يقدم المدينة ليروض هؤلاء النفر ، فأرسل الى عبد الله بن عباس ، وعبد الله بن جعفر ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير ، وأمر حاجبه ألا يأذن لأحد من الناس حتى يخرج هؤلاء النفر ، ثم تكلم معاوية فقال : « أما بعد : فإنى قد كبر سنى ، ووهن عظمى ، وقرب أجلى ، وأوشكت أن أدعى فأجيب ، وقد رأيت أن أستخلف عليكم بعدى يزيد ، وأنتم عبادلة قريش وخيارها وأبناء خيارها ، ولم يمنعنى أن أحضر حسنا وحسينا إلا أنهما أولاد أبيهما ، على حسن رأيى فيهما وشديد

محبتى لهما ، فردوا على أمير المؤمنين خيرا يرحمكم الله » فتكلم القوم بكلام لم يثاج صدر معاوية ، وكان مما قال عبد الله بن الزبير : « أما بعد : فإن هذه الخلافة لقريش خاصة تتناولها بمآثرها السنية ، وأفعالها المرضية ، مع شرف الآباء وكرم الأبناء ، فاتق الله يامعاوية ، وأنصف من نفسك ، فإن هذا عبد الله بن عباس ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهـذا عبد الله بن جعفر ذو الجناحين ابن عم رسول الله ، وأنا عبد الله بن الزبير بن عمة رسول الله ، وعلى خلف حسنا وحسينا ، وأنت تعلم من هما ، وماهما ، فاتق الله يامعاوية ، وأنت الحاكم بيننا وبين نفسك » .

أعرض معاوية عن البيعة ليزيد خشية أن تعاد عليه جذعة ، وارتحل عن المدينة متحينا الفرصة المواتية ، وليس له همّ إلا هؤلاء النفر الذين ينافسون ابنه فى مكانه من الخلافة ، ولم يزل يفتل فى غارب الأحداث ، ويروض الناس ، ويشاور ، ويعطى الأقارب ، ويدانى الأباعد ، حتى استوثق من اكثر الناس ، وكان بدهائه يعـلم أن عبد الله بن الزبير أصلب القوم عودا ، وأصعبهم مراسا ، وأبعدهم غاية ، وأوسعهم طموحا ، وأشدهم إنكارا لبيعة يزيد ، وقد وصف له سـعيد بن العاص عامله على المدينة موقف ابن الزبير فى كتاب بعث به اليه فقال : « أما الذى ظاهر بعدائه وإبائه لهذا الأمر فعبد الله بن الزبير » ولم يكن معاوية بالذى يستهين برجل فى إهاب أبى خبيب ، فكتب الى سعيد يقول له : « أما الذى يرد مع السباع إذا وردت ، ويكنس إذا كنست فذلك عبـد الله بن الزبير ، فاحذره أشـد الحذر » وقد تولى أمره بنفسه يروضه ويعجم عوده ، فقال له : ماترى فى بيعة يزيد ؟ قال عبد الله « يا أمير المؤمنين إنى أناديك ولا أناجيك ، إن أخاك من صدقك ، فانظر قبل أن تتقدم ، وتفكر قبل أن تندم ، فان النظر قبل التقدم والتفكر قبل التندم » فضحك معاوية وقال : « أنت ثعلب رواغ ، كلما خرجت من جحر انجحرت فى آخر ، تعلمت الشجاعة عند الكبر ، فى دون ما تشجعت به على ابن أخيك ما يكفيك » .

قـدّر العبادلة لابن الزبير صراحته الحازمة ، فأسندوا اليه أمرهم ، وفوضوا له التـكلم بلسانهم عنـد ما رأوا تصميم معاوية على تنفيذ رأيه ، فاجتمعوا وقالوا لابن الزبير : اكفنا كلامه ، فقال : على ألا تخالفونى ، فقالوا : لك ذلك ! ثم أتوا معاوية فرحب بهم وقال لهم « قد علمتم نظرى لـكم وتعطفى عليكم ، وصلتى أرحامكم ، ويزيد أخوكم وابن عمكم ، وإنما أردت أن أقدمه باسم الخلافة ، وتـكونوا أنتم تأمرون وتنهون ، فسكتوا ، وتـكلم ابن الزبير فقال : « نخيرك بين إحدى ثلاث ، أيها أخذت فهى لك رغبة ، وفيها خيار ، إن شئت فاصنع فينا ما صنعه رسول الله صلى الله عليـه وسلم : قبضه الله ولم يستخلف ، فدع هذا الامر حتى يختار الناس لأنفسهم ، وإن شئت فما صنع أبو بكر : عهد الى رجل من قاصية قريش وترك ولده ومن رهطه الأدنين من كان لها أهلا ، وإن شئت فما صنع عمر : صيّرها الى ستة نفر من

قريش ، يختارون رجلا منهم ، وترك ولده وأهل بيته ، وفيهم من لو وليها لكان لها أهلا »
فقال معاوية : هل غير هذا ؟ قال : لا ، ثم قال للآخرين : ما عندكم ؟ قالوا : نحن على ما قال ابن الزبير !

تمت البيعة ليزيد على كره جمهرة من شباب قريش يقودهم عبد الله بن الزبير ، فتوجه الى مكة ، وتحصن بالبيت الحرام ، ووجه إليه يزيد الجيوش لمحاربته ، ولكن القدر كان أسرع الى أجل يزيد ، فاضطرب أمر بنى أمية ، واستشرى أمر عبد الله بن الزبير ، وبايعه الناس ، وكاد الأمر يتم له ، لولا أن عبد الله أرادها خلافة راشدة ، وأرادها منافسوه من آل مروان ملكا عضوضا ، وأرادها عبد الله عُمرية علوية ، وأرادها مزاحموه معاويّة عَمْرية ، روى المؤرخون أن حصين بن نمير الذى خلف مسلم بن عقبة فى محاربة عبد الله بن الزبير لما بلغه موت يزيد قال لعبد الله : يا أبا بكر ، أنا سيد أهل الشام ، لا أدافع ، وأرى أهل الحجاز قد رضوا بك ، فتعال أبايعك الساعة ، ويهدر كل شىء أصبناه يوم الحرة ، وتخرج معى الى الشام فانى لا أحب أن يكون الملك بالحجاز ، فقال عبد الله : والله لا أفعل ، ولا آمن مَن أخاف الناس ، وأحرق بيت الله ، وانتهك حرمته ، قال حصين : بلى ، فافعل على ألا يختلف عليك اثنان ، فأبى عبد الله ، فقال حصين : فعل الله بك وبمن يزعم أنك سيد ، والله لا تفلح أبدا .

ويحدثنا التاريخ أن أخاه مصعب بن الزبير لما فرغ من فتنة المختار بن عبيد الثقفى قدم عليه ومعه وجوه أهل العراق الذين أيدوه وثبتوا رايته بالعراق ، وكلمه فى الإحسان إليهم ، فقال « يا أمير المؤمنين ، قد جئتك بوجوه أهل العراق ، ولم أدع لهم نظيرا ، فاعطهم من هذا المال »
فقال عبد الله : « جئتنى بعبيد أهل العراق لأعطيهم من مال الله ، وددت أن لى بكل عشرة منهم رجلا من أهل الشام ، صرف الدينار بالدرهم » فقال رجل من القوم : أتدرى يا أمير المؤمنين ما مثلنا ومثلك فيما ذكرت ؟ قال : وما ذاك ؟ قال : فإن مثلنا ومثلك ومثل أهل الشام كما قال أعشى بكر بن وائل :

علقتها عرضا وعلقت رجلا غيرى وعلق أخرى ذلك الرجل

ثم انصرف القوم من عنده خائبين وقد فسدت قلوبهم ، وراسلوا عبد الملك بن مروان ، فخرج إليهم بعد أن ملأ أيديهم بالأموال وهزم جيوش عبد الله وقتل مصعبا ، وهل يبعد هذا الموقف عن موقف على بن أبى طالب وقد سأله أخوه عقيل بن أبى طالب شيئا من مال فمنعه وانحاز الى معاوية ، فاغدق عليه وعلى أهل بيته ، وقديما أخذ الباحثون على عبد الله بن الزبير هذه الخلال التى تند عن خلال الرجال الذين يريدون أن يشيدوا ملكا ويقيموا دولة فى غير أزمان النبوة ؟

صادق ابراهيم عرجون

عمر بن عبد العزيز

- ٦ -

عبادته :

لقد كان عمر تقيا متعبدا ، ورعا زاهدا ، وكان مع ذلك إماما عادلا رشيدا ، محبا للرعية مشفقا عليها ، لم تشغله عبادة ربه عن عباد ربه ، ولم تحـل بينه وبين ما يصلحهم من جليـل الأمور ودقيقها ، كما أنه لم تقعد به اعباء الخلافة وما تقتضيه سياسة الملك ، من كد ونصب ، عما عليه من تألـه وطاعة ؛ فـكان يصرف النهار وبعض الليل أحيانا فيما يعود على الأمة بالخير ، فاذا فرغ من ذلك قنت آناء من الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ، ويرجو رحمة ربه .

ولم ينس عبادة التفكير لما فيها من قوة اليقين ، وكمال الايمان ، وصدق العزيمة ، والصلة بين العبد وربه .

حرص طوال حياته على تأنيب نفسه قبل أن تؤنب ، وعلى حسابها قبل أن تحاسب ، وعلى تذكيرها قبل أن تذكر .

محاورته مع مسلمة بن عبد الملك :

حينما احتضر عمر بن عبد العزيز ، دخل عليه مسلمة بن عبد الملك ، فقال: يا أمير المؤمنين إنك قد أقفرت أفواه ولدك من هـذا المـال ، فلو أوصيت بهم الىّ والى نظرائى من قومك لـكفوك مؤونتهم ، وكان ذلك خيرا لهم وأحسن . فلما سمع مقالته هذه قال : اجلسونى : فأجلسوه ، فقال : قد سمعت مقالتـك يا مسلمة ، أما قولك إنى أقفـرت أفواه ولدى من هذا المـال ، فوالله ما ظلمتهم حقا هو لهم ، ولم أكن لأعطيهم شيئا لغيرهم . وأما ماقلت فى الوصية فان وصيي فيهم الله الذى نزل الـكتاب وهـو يتولى الصالحين . وإنما ولَـدُ عمر بين أحد رجلين : إما رجل صالح فسيغنيه الله ، وإما غير ذلك فلن أكون أول من أعانه بالمـال على معصية الله ، ادع لى بنىّ ، فأتوه ، فلما رآهم ترقرقت عيناه بالدموع ، وقال : بنفسى فتية تركتهم عالة لا شيء لهم ، يابنى ، إنى قد تركت لـكم خيرا كثيرا لا تمرون بأحـد من المسلمين وأهل ذمتهم إلا رأوا لـكم حقا فيه ، يابنى ، إنى قد مثلت بين الأمرين : أما أن تستغنوا فيدخل أبوكم النار ، أو تفتقروا ويدخل الجنة ، فأرى أن تفتقروا وأدخل الجنـة خير لى من أن تستغنوا وأدخـل النار ، قوموا عصمكم الله ، قوموا رزقـكم الله . فاستجاب الله دعاءه فى أولاده فما احتاج أحد منهم ولا افتقر .

صفاته الأدبيـة العاليـة :

كان حليما ذا أناة ، ليس بفظ ولا غليظ القلب ، يعفو عمن ظلمه ، ويحسن الى من أساء اليه ، ويقضى بالحق ولو على نفسه ، فكان له ابن من فاطمة بنت عبد الملك ، فخرج يوما يلعب مع الصبية فشجه غلام ، فاحتمله الحاضرون ومن شجه ، وأدخلوهما على فاطمة ، فسمع عمر الجلبة وهو فى بيت آخـر ، فخرج وجاءت امرأة وقالت هو ابنى وهـو يتيم ، فقـال عمر أله عطـاء ؟ قالت لا ، قال اكتبوه فى الذرية ، قالت فاطمة فعل الله به وفعل إن لم يشجه مرة أخرى ، فقال لها عمر : إنـكم أفزعتموه .

ودخل المسجد ذات ليلة فى الظلمة ، فعثر برجل نائم ، فرفع ذلك الرجـل رأسه وقال له أمجنون أنت ؟ قال : لا ، فهم حارسه بضربه ، فقال له عمر إنمـا سألنى أمجنون أنت فقلت لا .

نبذة من أدعيته :

كان يتضرع الى الله فى كل شىء بما يناسبه ، فدخل الـكعبة يوما وقال : اللهم إنك وعدت الأمان دخّال بيتك ، وأنت خير منزول به فى بيته ، اللهم اجعل أمان ما تؤمننى به أن تكفينى مؤونة الدنيا ، وكل هول دون الجنة ، حتى تبلغنيها برحمتك يا أرحم الراحمين .

ووقف على عرفات يوما وقال : اللهم إنك دعوت الى حج بيتك ، ووعدت به منفعة على شهود مناسكك ، وقد جئتك اللهم ، فاجعل منفعة ما تنفعنى به أن تؤتينى فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة ، وأن تقينى عذاب النار .

وإذا نزلت به نعمة قال : اللهم لا تعطنى فى الدنيا عطاء يبعدنى من رحمتك فى الآخرة .

وكان يخشى الشيطان ويقول : يا رب خلقتنى وأمرتنى ونهيتنى ورغبتنى فى ثواب ما أمرتنى به ، ورهبتنى عقاب ما نهيتنى عنه ، وسلطت على عدوا فأسكنته صدرى ومجرى دمى ، إن أهم بفاحشة شجعنى ، وإن أهم بطاعة ثبطنى ، لا يغفل إن غفلت ، ولا ينسى إن نسيت ينصب لى فى الشهوات ، ويتعرض لى فى الشبهات ، وإلا تصرف عنى كيـده يستذلنى ، اللهم فاقهر سلطانه علىّ بسلطانك عليـه ، حتى تخسئه بكثرة ذكرى لك ، فأفوز مع المعصومين بك يا أرحم الراحمين .

نساؤه :

تزوج من النساء أربعا : هن أم لميس بنت على بن الحارث ، وقد ولدت له عبد الله وبكرا وأم عمار ، وأم عثمان بنت شعيب بن زيان ، ولم تلد له غير ابراهيم ، وفاطمة بنت عبد الملك بن مروان ، وقد ولدت له إسحق ويعقوب وموسى ، وأما عبـد الملك والوليـد وعاصم ويزيد وعبد الله وعبد العزيز وزيان وأمينة وأم عبد الله فأمهم أم ولد .

نشأة أولاده :

نشأهم تنشئة دينية ، ولم يتركهم وشأنهم ، بل عهد الى سهل مولاه بتأديبهم ، وكتب اليه : « أما بعد : فانى اخترتك على علم منى بك لتأديب أولادى ، فصرفتهم اليك عن غيرك من موالى وذوى الخاصة بى ، فخذهم بالجفاء فهو أمعن لإقدامهم ، وترك الصحبة ، فان عادتها تكسب الغفلة ، وقلة الضحك ، فان كثرته تميت القلب . وليكن أول ما يعتقدون من أدبك بغض الملاهى التى بدؤها من الشيطان ، وعاقبتها سخط الرحمن ، فانه بلغنى عن الثقات من أهل العلم أن حضور المعازف ، واستماع الأغانى ، واللهج بها ، ينبت النفاق فى القلب كما ينبت العشب الماء ، ولعمرى لتوقى ذلك بترك حضور تلك المواطن أيسر على ذى الذهن من الثبوت على النفاق فى قلبه ، وهو حين يفارقها لا يعتقد مما سمعت أذناه على شىء مما ينتفع به ، وليفتتح كل غلام منهم بجزء من القرآن يتثبت فى قراءته ، فاذا فرغ تناول قوسه ونبله ، وخرج الى الغرض حافيا ، فاذا رمى سبعة أرشاق انصرف الى القائلة فان ابن مسعود رضى الله عنه كان يقول يا بنى : قيلوا فان الشياطين لا تقيل »

كان من أولاده واحد يدعى عبد الملك : نهج منهج أبيه فى الصلاح والتقوى ، فكتب له أبوه من المدينة بعد توليه الخلافة يقول : « إنه ليس من أحد رشده وصلاحه أحب الى من رشدك وصلاحك ، إلا أن يكون والى عصابة من المسلمين ، أو من أهل العهد ، يكون لهم فى صلاحه ما لا يكون لهم فى غيره ، أو يكون عليهم من فساده ما لا يكون لهم من غيره فأعن أباك على ما قوى عليه ، وعلى ما ظننت أن عنده فيه عجزا عن العمل فيما أنعم الله به عليه وعليك فى ذلك ، ولا تفتتن فيما أنعم الله به عليك فيما عسيت أن تقرظ به أباك فيما ليس فيه إن أباك كان بين ظهرى إخوته يفضل عليه الكبير ، ويدنى دونه الصغير ، وإن كان الله « وله الحمد » قد رزقنى من والدى حسبا جميلا كنت به راضيا ، أرى أفضل ببره ولده على حقا حتى ولدت وولدت طائفة من إخوتك ، ولا أخرج بكم من المنزل الذى أنا فيه ، فمن كان راغبا فى الجنة وهاربا من النار فالآن التوبة مقبولة ، والذنب مغفور ، قبل نفاد الأجل وانقضاء العمل ، وفراغ من الله للمتقلبين ، ليدينهم بأعمالهم فى موضع لا تقبل فيه الفدية ، ولا تنفع فيه المعذرة ، تبرز فيه الخفيات ، وتبطل فيه الشفاعات ، فطوبى يومئذ لمن أطاع الله وويل يومئذ لمن عصى الله ، فإن ابتلاك الله بغنى فاقتصد فى غناك ، وأد فرائض الله فيها ، وإياك أن تفخر بقولك ، أو تعجب بنفسك ، أو يخيل اليك أن ما رزقته لكرامة لك على ربك ، وفضيلة على من لم يرزق مثل غناك ، فإذا أنت أخطأت باب الشكر ، وتركت منازل أهل الفقر ، وكنت ممن طغى للغنى وتعجل طيباته فى الحياة الدنيا ، فانى لأعظك بهذا وإنى لكثير الإسراف على نفسى ، غير محكم لكثير من أمرى ، ولو أن المرء لم يعظ أخاه حتى يحكم أمر

نفسه ، ويعمل فى الذى خلق له من عبادة ربه ، إذا لتواكل الناس الخير ، ولرفع الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وقل الواعظون والساعون لله بالنصيحة فى الأرض ، فلله الحمد رب السموات ورب الأرض رب العالمين ، وله الكبرياء فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم » .

ولما قرأ عبد الملك كتاب أبيه سر منه ، وعمل بالذى فيه ، واتفق أن مات فى حياة أبيه وبعد أن شيع عمر جثمانه الى مقره الأخير ، وفرغ من دفنه ، استوى قائما فأحاط الناس به ، فقال : « والله يابنى ، لقد كنت بارا بأبيك ، والله ما زلت مذ وهبك الله لى مسرورا بك ، ولا والله ما كنت قط أشد سرورا ، ولا أرجى لحظى من الله فيك ، منذ وضعتك فى المنزل الذى صيرك الله فيه ، فرحمك الله ، وغفر ذنبك ، وجزاك الله بأحسن عملك ، ورحم الله لكل شافع يشفع لك بخير من شاهد أوغائب ، رضينا بقضاء الله ، وسلمنا لأمره ، والحمد لله رب العالمين »

وحزن عمر على ابنه عبد الملك حزنا عميقا ، وشاطره ذلك رعيته ، وبالغوا فيه ، حتى ناحوا عليه ، فنهاهم عمر عن ذلك بقوله : « إن الله تعالى أحب قبضه ، وأعوذ بالله أن أخالف محبته . إن الله عز وجل لم يجعل لمحسن ولا لمسىء فى الدنيا خلدا ، ولم يرض بما أعجب أهلها ثوابا لأهل طاعته ، ولا ببلائها عقوبة لأهل معصيته ، فكل ما فيها من محبوب متروك ، وكل ما فيها من مكروه مضمحل ، لذلك خلقت وكتب على أهلها الفناء ، فأخبر أنه يرث الأرض ومن عليها ، فاتقوا الله واعملوا ليوم لا يجزى فيه والد عن ولده ، ولا مولود هو جاز عن والده شيئا ، إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور » ؟

محمد مصطفى شادى

جلال العلم

لما حج هرون الرشيد ، وشخص بعد الحج الى المدينة ، أراد أن يسمع الحديث عن مالك ابن أنس ، فاستقدمه اليه ، فاعتذر الامام محتجا بأن العلم يؤتى اليه ، ولا يأتى هو الى طالبه . فقبل أمير المؤمنين أن يذهب بنفسه اليه ، ولكنه طلب أن يخلى المجلس من الناس . فاعتذر مالك محتجا بأن العلم إذا منع عنه العامة لم ينتفع به الخاصة . فقبل الرشيد عذره ، وأذن للناس فدخلوا .

نقول : لا نذكر أن عالما فى العالم كله بلغ هذا المبلغ فى تعظيم العلم .

التجديد والمجددون فى الاسلام

من القرن الأول الهجرى الى عصرنا الحاضر

الامام الاعظم أبو حنيفة

علامَ بنى مذهب أبى حنيفة ؟ كيف دونت أصوله ؟ نقد هذا المذهب والرد عليه .

(١) ما هى الأصول التى بنى عليها أبو حنيفة مذهبه ؟

١ — من آثار أبى حنيفة وتجديده ، أنه أول من دون الفقه ورتبه أبوابا ، ولم يسبقه أحد فى ذلك ، لأن الصحابة والتابعين إنما كانوا يعتمدون على قوة حفظهم ، فلما رأى أبوحنيفة الفقه منتشرا جعله أبوابا مبوبة ، وكتبا مرتبة على نحو ما نراه فى كتب الفقه الآن ، فكان فى هذا نسيج وحده ، ومجددا غير مدافع ، وكان مقامه فى الفقه لا يلحق كما شهد له بذلك أبناء جلدته خصوصا مالك والشافعى ، بل كان كما قال القائل :

إمامٌ رست للفقه فى أرض صدره   جبالٌ جبالُ الأرض فى جنبها قفُّ

٢ — ولقد اتفق الجمهور من العلماء على أن أصول الشريعة الاسلامية هى : الكتاب والسنة والاجماع والقياس ؛ وإن خالف بعضهم فى الاجماع والقياس إلا أنه شذوذ ؛ وألحق بعضهم بهذه الأصول الأربعة أدلة أخرى ، ولضعف مداركها وشذوذ القول فيها لا نتعرض لها هنا .

٣ — فما هى الأسس التى بُنى عليها المذهب الحنفى ، أهى الأسس التى اتفق عليها الجمهور ، أو أسس المخالفين له ؟

لقد أجاب الامام أبو حنيفة نفسه عن هذا السؤال ، كما وصل الينا من طرق كثيرة ، فقال رضى الله عنه :

« إنى آخذ بكتاب الله تعالى ، فان لم أجد فى كتاب الله تعالى ، فبسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، فان لم أجد فى سنة رسوله ، أخذت بقول أصحابه من شئت منهم ، وأدع قول من شئت منهم ، وما أخرج عن قولهم الى قول غيرهم ؛ فأما إذا انتهى الأمر وجاء الى إبراهيم والشعبى والحسن وابن سيرين وعطاء وسعيد بن المسيب وابن جبير ، وعد رجالا . . . فقوم اجتهدوا ، فأجتهد كما اجتهدوا » .

وقال الامام الحسن بن زياد صاحب أبى حنيفة : قال الامام أبو حنيفة : « ليس لأحد أن

يقول برأيه مع كتاب الله تعالى ، ومع سنّة رسوله صلى الله عليه وسلم ، ومع ما أجمع عليه الصحابة ؛ وأما ما اختلفوا فيه فنتخيّر من أقاويلهم أقربه الى كتاب الله تعالى ، والى سنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، ولا نجتهد ؛ وما جاوز ذلك فالاجتهاد بالرأى فى وسع الفقهاء لمن عرف الاختلاف وقاس ، وعلى هذا كانوا . وقال زهير بن معاوية : كنت عند الامام أبى حنيفة والأبيض بن الأعز يقايسه فى مسألة يدبرونها بينهم ، فصاح رجل من ناحية المسجد . ظننته من أهل المدينة . ماهذه المقايسات ، دعوها فأول من قاس إبليس ؛ فأقبل عليه أبو حنيفة وقال له : « ياهذا وضعت الكلام فى غير موضعه ، إبليس بقياسه رد على الله سبحانه وتعالى أمره ؛ قال الله تعالى : « إذ قال ربّك للملائكة إنى خالقٌ بشرا من طين ، فاذا سوّيته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين ، فسجد الملائكة كلّهم أجمعون ، إلاّ إبليس استكبر وكان من الكافرين ، قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدىّ أستكبرت أم كنت من العالين ، قال أنا خيرٌ منه : خلقتنى من نار وخلقته من طين » (١) . فاستكبر ورَدَّ على الله تعالى بقياسه أمره ، وكلّ من ردّ على الله تعالى أمره فهو كافر ؛ وهذا القياس الذى نحن فيه نطلب به اتباع أمر الله تعالى ، لأنا نردّه الى أمر الله تعالى فى كتابه ، أو الى سنّة سنها رسوله أو الى اتفاق الصحابة والتابعين ، فنجتهد فى ذلك حتى نرده الى الكتاب أو السنة أو الاجماع ؛ فاتبعنا فى ردّنا الى الكتاب والسنة والاجماع أمر الله تعالى . قال الله تعالى : « يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ؛ فإن تنازعتم فى شئ فردوه الى الله والرسول » . فنحن ندور حول الاتباع ، فنعمل بأمر الله تعالى ؛ وإبليس حيث قاس خالف أمر الله تعالى وردّه ، فكيف يستويان ؟ ! » فقال الرجل : غلطت يا أبا حنيفة وتبت ، فنوّر الله قلبك كما نورت قلبى .

فمن هذه النصوص يتبين أن الامام أبا حنيفة بنى مذهبه على أصول الشرع الأربعة التى اتفق عليها جمهور العلماء ، ولم يشذ فى شىء عن هذا الاتفاق كما شذّ بعضهم ، وعلى ذلك فلا وجه للحملات التى حملها عليه خصومه بغير حق لينالوا منه ، لأنه لم يخرج فى مذهبه عما اتفق عليه جمهور علماء المسلمين وأئمتهم ؛ وإن ذكراه بالمدح والثناء جديرة بأن يحتفل بها فى كل عام ، إن لم تتكرر على الدوام .

أعد ذكر نعمان لنا إن ذكره ... هو المسك ما كررته يتضوع

(٢) ما هو المنهاج الذى أثبت عليه أبو حنيفة أصول مذهبه ؟

فى مسند الخوارزمى وغيره أن الإمام أبا حنيفة رضى الله عنه اجتمع معه ألف من أصحابه أخذوا عنه ، وعاونوه فى وضع مسائل المذهب ، وفى إعداد الجواب عنها ؛ وأجل هؤلاء

(١) سورة ص الآية ٧٠ وما بعدها .

الأصحاب وأفضلهم أربعون قد بلغوا حد الاجتهاد ، فقربهم وأدناهم وقال لهم : إنى ألجمت هـذا الفقه وأسرجته لكم ، فأعينونى ، فكان إذا وقعت واقعة شاورهم وناظرهم وحاورهم وسألهم ، فيسمع ما عندهم من الأخبار والآثار فيها ، ويقول ما عنده ، ويناظرهم شهرا أو أكثر حتى يستقر آخر الأقوال ، فيثبته صاحبه أبو يوسف ، حتى أثبت أصول المذهب على هـذا المنهاج ، شورى بين أصحابه . وكان أكثرهم من صفوة العلماء المبرزين الذين بلغوا بعلمهم درجة الاجتهاد ، وما كانوا يعملون إلا لله تعالى ولخدمة الدين والعلم والمجتمع ، ولم يكن للمادة عليهم من سلطان .

(٣) نقد مذهب أبى حنيفة :

وجه بعض العلماء الى مذهب أبى حنيفة انتقادات وملاحظات نلخصها فى مسألتين :

المسألة الأولى : إن أدلة المذهب ضعيفة .

المسألة الثانية : إن أبا حنيفة يستعمل الرأى ويقدّم القياس على النص .

فاما الزعم والادعاء بأن أدلة مـذهب أبى حنيفة ضعيفة ، فغـير صحيح بل هو تعصّب على الامام وافتراء عليه ، فهذا كتاب تخريج أحاديث الهداية للحافظ الزيلعى ، وكتب المذهب بين أيدينا ، وكل ما فيها من أدلة يدور بين الصحيح ، والحسن ، والضعيف الذى كثرت طرقه حتى ألحق بالحسن . وقد قال جمهور المحدثين بالاحتجاج بالحديث الضعيف إذا كثرت طرقه ، وألحقوه بالصحيح تارة وبالحسن تارة أخرى ؛ وهذا النوع من الضعيف يوجد كثيرا فى كتاب السنن الكبرى للبيهقى التى ألفها بقصد الاحتجاج لمذهب الامام الشافعى رضى الله عنه ولأقوال أصحابه ، فإنه إذا لم يجد حديثا صحيحا أو حسنا لقول الامام الشافعى أو لقول أحد من أتباعه يروى الحديث الضعيف من طريق كذا وكذا ، ويكتفى بذلك ويقول : وهذه الطرق يقوى بعضها بعضا ، فعلى فرض وجود ضعف فى بعض أدلة أقوال الامام أبى حنيفة وأقوال أصحابه فانه لا خصوصية له فى ذلك ، فإن هذا أمر يشارك فى الاستدلال به جميع الأئمة كما سيأتى ، والحقُّ أحقُّ أن يتبع .

وقال الإمام الشعرانى : لقـد منّ الله تعالى علىّ بمطالعة مسانيد الإمام أبى حنيفة من نسخة صحيحة عليها خط الحافظ الزّيلعى والحافظ الدمياطى وغـيرها ، فوجدته رضى الله عنه لا يروى حديثا إلا عن خيار التابعين الثقات العدول الذين هم من خير القرون بشهادة الرسول صلى الله عليه وسلم كالأسود وعلقمة وعطاء وعكرمة ومجاهد والحسن البصرى وأضرابهم ، فـكل الرواة الذين بينه وبين النبى صلى الله عليه وسلم ثقات عدول ليس فيهم كذاب بل هم أعلام أخيار ، وناهيك بعدالة من أخـذ عنه الإمام الأعظم وارتضاه لأحكام دينه مع شـدة ورع الإمام وتحرّزه وشفقته على الأمة المحمدية ، على أنه ما من راو من رواة المحدثين ...

إلا وهو يقبل الجرح لو أضيف اليه كما يقبل التعديل ، وذلك لعدم العصمة ، ولكن العلماء رضى الله تعالى عنهم أمناء الشريعة فقدموا التعديل غالبا على الجرح لئلا يذهب غالب الشريعة ، وقالوا إحسان الظن بالرواة المستورين أولى ، مع أن جمهور المحدثين قالوا : إن مجرد الكلام فى شخص لا يسقط مروءته ، وقد خرّج الشيخان لخلق كثير ممن تكلم الناس فيهم إيثارا لإثبات أدلة الشريعة ليحوز الناس فضل العمل بها ، وليكون فى ذلك فضل كثير للأمة ؛ كما أن فى ضمن تضعيفهم للاحاديث أيضا رحمة للأمة بتخفيف الأمر بالعمل بها وإن لم يقصد الحفاظ ذلك ، فانهم لو لم يضعفوا شيئا من الأحاديث وصححوها لعجز غالب العامة عن العمل بها ، فليس لنا ترك حديث من تكلم الناس فيه بمجرد الكلام ؛ وإنما لنا ترك ما انفرد به ، وكان مخالفا للثقات ، ولو أننا فتحنا باب الترك لكل راو تكلم فيه بعض الناس لذهب معظم أحاديث الشريعة . فجميع أدلة الأئمة المجتهدين لا تخرج عن الشريعة ، وإذا قال أحد الحفاظ بضعف شىء من أدلة مذهب أبى حنيفة فذلك محمول جزما على ضعف الرجال النازلين فى السّند بعد موت الامام الأعظم إذا رَوَوْا ذلك عن طريق غير طريق الامام ؛ أما كل حديث وجدناه فى مسائل الامام فهو حديث صحيح ، لأنه لو لم يكن صحيحا لما استدل به ، وكفى صحة للحديث استدلال مجتهد به ، ويجب العمل به ولو لم يروه غيره ، ولا يقدح فى صحته وجود كذاب أو متهم بكذب فى سنده النازل عن الامام .

ويحتمل أن يكون مراد القائل بأن فى أدلة مذهب أبى حنيفة ضعيفا إنما هو فى أدلة مذاهب أصحابه التى ولدوها بعده ، وفهموها من كلامه لجهل هذا بحقيقة المذهب ؛ فإن مذهب الانسان هو ما قاله ولم يرجع عنه الى أن مات لا ما فهم من كلامه ؛ وهذا الجهل يقع فيه كثير من طلبة العلم فضلا عن غيرهم ، فيقولون مذهب أصحاب الامام مذهب له ، مع أن الامام ليس له فى تلك المسألة كلام ؛ وكل هذا من قلة الورع فى الدين وسوء التصرف . فأدلة مذهب أبى حنيفة صحيحة لا ريب فيها ، وإن جميع ما استدل به لمذهبه أخذه عن خيار التابعين كمجاهد وعكرمة والأسود وعلقمة وأضرابهم ، فلا يتصور فى أدلته ضعف بوجه من الوجوه ؛ وإن قيل بضعف حديث مستدل به ، فذلك الضعف إنما هو من حيث الراوى النازل فى السند بعد موت الإمام ، فلا يقدح ذلك فيما أخذ به الامام لمن استصحب النظر فى الرواة وهو صاعد الى النبى صلى الله عليه وسلم ؛ وكذلك أدلة أتباعه وأئمة مذهبه ، فلم يستدل أحدهم بحديث ضعيف وإنما يستدل بصحيح أو حسن أو ضعيف كثرت طرقه ، وذلك أمر يشارك فى الاستدلال به جميع الأئمة ، ولا خصوصية لأصحاب أبى حنيفة فى ذلك ، على أن الأدلة التى لم يأخذ بها كل إمام يسيرة جدا ، وباقى الأدلة اتفقوا كلهم على الأخذ بها .

فالذين يقولون بضعف فى بعض أدلة مذهب أبى حنيفة لا يفهمون كلام الامام ، ولا يعرفون

مدارك مذهبه التى هى فى غاية الدقة ، ولا أدل على هذا من قول الامام الشعرانى : دخل على شخص من طلبة العلم ، فأخرج لى بعض الكراريس وقال : انظر فى هذه ، فوجدت فيها جملة من المسائل المنقولة عن الإمام أبى حنيفة ، ووجدته قد شرع فى ردها . فقلت له : مثلك لا يفهم كلام هذا الإمام ؟ فقال : إنما أخذتها عن الفخر الرازى ، فقلت له : والفخر الرازى بالنسبة للامام أبى حنيفة كآحاد الرعية مع السلطان الأعظم ، ولا ينبغى لأحد من الرعية الطعن على إمامه إلا بحق واضح . ثم قال : ولقد كان لى صاحب عزيز على ، فذكر الامام أبا حنيفة بسوء ، وقال لا أقدر أسمع لهذا ولا ؛ فنهيته عن ذلك وأفهمته ما فيه من ضرر ، وقال الإمام الخواص : مذهب الامام الأعظم هو آخر المذاهب انقراضا كما كان أول المذاهب المدونة ؛ ولا عبرة بمن يعترض على بعض أقواله من الناس فانه جاهل بمداركه . فالدعوى بأن أدلة مذهب أبى حنيفة ضعيفة غير صحيحة ولا دليل عليها ولا يدعيها إلا من لم يفهم كلام أبى حنيفة ، ولا يعرف مدارك مذهبه الدقيقة ، أما أن أبا حنيفة يستعمل الرأى ويقدم القياس على النص فسنتكلم عنه بعد إن شاء الله تعالى ؟

السيد عفيفى



العامل بغير علم

قال الحسن البصرى : لقيت قوما من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولون : من عمل بغير علم كان ما يفسد أكثر مما يصلح .

وروى عن أوائلنا قولهم : العامل بغير علم كالسائر على غير طريق .

نقول : إننا شديدو العجب من صدور هذه الحكم العالية من قوم كانوا فى أمسهم لا يعرفون ما هو العلم ، ولا يشعرون أنهم فى حاجة اليه . وأن مدح العلم إيذان من المادح بأنه يعرف قيمته ، ولكن أعظم من المدح ، وأبعد غورا فى تقدير قدره ، أن يعرف القائل أن العامل بغير علم يهتدى به ، كان ما يسببه عمله من الفساد أكثر مما يوجده من الاصلاح . وهذا القول يحتم طلب العلم ما لا يحتمه أى ضرب من ضروب التحضيض عليه .

دراسات في القرآن الكريم

كيف نشأ تفسير القرآن الكريم

وتراجم مشاهير المفسرين

لا بد للباحث فى هذا الموضوع من أن يتجه إليه من ناحية أصله وأساسه ، أى قبل أن يكون تفسير القرآن الكريم « علما مدونا » ، حتى يستطيع أن يصل الى : كيف نشأ ، وكيف دُوّن ، ومن هو أول من دونه . والعوامل التى ساعدت على ذلك ؟ إذ للموضوع ناحيتان رئيسيتان : إحداهما تفسير القرآن الكريم قبل أن يصير « علما مدونا » ، والثانية بعد أن صار كذلك . والناحية الأولى ترجع الى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وعهد أصحابه رضوان الله عليهم أجمعين . لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أصل ذلك وأساسه ، إذ هو الذى أنزل عليه القرآن ، فهو أعلم الناس إطلاقا به . وهو فى الوقت نفسه مكلف ببيان ما يخفى على الناس من معانيه مصداقا لقوله تعالى : « وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم » ، فالسنة تبين القرآن من ناحية عمومه وخصوصه ، ومطلقه ومقيده ، وناسخه ومنسوخه ، ومنطوقه ومفهومه ، وغير ذلك مما أفاض فيه علماء أصول الفقه . بل قد أثبتوا أن السنة لا تقتصر على بيان عمومه ومطلقه الخ ، وإنما هى تخصص عمومه ، وتقيد مطلقه ، وتبين مجمله ، وتوضح مشكله . وأثبتوا أكثر من ذلك . قالوا إن السنة المتواترة تنسخ القرآن ، وإن منعه بعضهم . كالإمام الشافعى رضى الله عنه .

أما غريب القرآن الكريم . فغير محتاج بالنسبة لأكثرهم الى بيان ، لأن غريب القرآن هو غريب اللغة ، وهم أصحابها وفرسان ميدانها ، وأبناء بجدتها . وإنما قلنا بالنسبة لأكثرهم . لأنه ثبت أن بعضهم توقف فى معنى غريب القرآن وسأل عنه . فمن ذلك ما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : إذا سألتمونى عن غريب القرآن فالتمسوه فى الشعر ، فان الشعر ديوان العرب . وقال سعيد بن جبير ويوسف بن مهران : سمعنا ابن عباس يسأل عن الشىء من القرآن ، فيقول فيه هكذا وهكذا ، أما سمعتم الشاعر يقول كذا وكذا ؟ وسأل رجل ابن عباس عن قول الله جل شأنه : « وثيابك فطهر » قال : لا تلبس ثيابك على غدر ، وتمثل بقول غيلان الثقفى :

فإنى بحمد الله لا ثوب غادر لبست ولا من سوءة أتقنع

وقال نافع بن الأزرق لابن عباس : أخبرنى عن قول الله جل وعز : « لا تأخذه سنة ولا نوم » ما السِنة . قال : النعاس . قال زهير بن أبى سلمى :

لا سنة فى طوال الليل تأخذه ولا ينام ولا فى أمره فنَد

وسئل عكرمة عن قوله تعالى : « ذواتا أفنان » ، قال : ذواتا ظل وأغصان ، ألم تسمع قول الشاعر :

ما هاج شوقك من هديل حمامة تدعو على فنن الغصون حماما
تدعو أبا فَرْخين صادف طائرا ذا مخلبين من الصقور قطاما

وغير ذلك .

كما أن بعض الصحابة يفهم من اللفظ المعنى الموضوع له فيحمله عليه ، ولا يتجه الى المعانى الثانوية من المجاز وغيره ، مع أن المعنى الأصلى قد يكون غير مراد إطلاقا ، مثال ذلك ما وقع لعدى ابن حاتم رضى الله عنه حينما نزل قوله تعالى : « وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر » ، إذ عمد الى عقال أبيض وآخر أسود ، ووضعهما تحت الوسادة ، وأكل وشرب حتى ميز بينهما على ضوء النهار ، فذكر ذلك للنبى صلى الله عليه وسلم . فبين له معنى الخيط الأبيض والأسود ، أعنى المعنى المراد من القرآن بقوله صلى الله عليه وسلم : « إنما ذلك سواد الليل وبياض النهار » .

أما الحديث الوارد عن السيدة عائشة رضى الله عنها وهو : « ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يفسر من كتاب الله إلا آيا بعدد علمه اياهن جبريل » ، فمحمول عند العلماء على تفسير مغيبات القرآن ، مما لا سبيل إليه إلا بتوقيف من الله تعالى ، ولا يحمل على إطلاقه الذى قد يستفاد منه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يتحفظ فى تفسير القرآن ، فلم يفسر إلا آيات معدودات جاءه جبريل ببيانها ، وإلا لزم تخصيص العموم فى قوله تعالى : « وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم » ، ولزم أيضا تحرّج أصحابه رضوان الله عليهم من تفسيره والخوض فى معانيه ، ولم يتحرجوا من ذلك .

وأما الحديث الذى رواه ابن عباس رضى الله عنهما وهو : « اتقوا الحديث علىّ إلا ما علمتم ، فمن كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار ، ومن قال فى القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار » ، فمحمول على تفسير القرآن بمعان يعلم المفسر أن الحق غيرها ، أو على معنى أن الرأى هو الهوى ، أى أنه يفسر القرآن تفسيرا يوافق هواه دون استناد الى أقوال أئمة السلف وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهم الطبقة العليا فى الفضل ، والمستقون العلم والحكمة منه صلى الله عليه وسلم ، فهم أصحاب الشأن الأول فى تفسير القرآن الكريم وغيره ، مما يتصل بالدين وأحكامه .

وقد كانوا رضوان الله عليهم متفاوتين فى العلم بمعانى القران . شأن أفراد كل طبقة ، فقد ورد عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه مكث سنتين يريد أن يسأل عمر بن الخطاب عن المرأتين اللتين تظاهرتا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يمنعه إلا مهابته ، ثم سأله فقال له : هما حفصة وعائشة ، ومعلوم أن القرآن قد نزل منجَّما على حسب الوقائع والحوادث ، فهو يقرر أحكامها ، فقد تحدث حادثة فى بيت تنزل بسببها آية ، فصاحب الحادثة يكون أعلم بها من غيره ، ثم يعلم ذلك الغير بطريق النقل والسماع .

وقد تحرج بعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من أن يفسر القرآن ، فمنهم أسبقهم فى الاسلام إطلاقا ، وأفضلهم وأجلهم ، أبو بكر الصديق رضى الله عنه . فقد روى ابن أبى مليكة قال : سئل أبو بكر الصديق رضى الله عنه فى تفسير حرف (أى كلمة) من القرآن فقال : أى سماء تظلنى ، وأى أرض تقلنى ، وأين أذهب ، وكيف أصنع ، إذا قلت فى حرف من كتاب الله بغير ما أراد تبارك وتعالى .

قال ابن عطية : وكان جملة من السلف كثير عددهم يفسرون القرآن ، وهم أبقوا على المسلمين فى ذلك رضى الله عنهم .

أما صدر المفسرين والمؤيد فيهم فعلى بن أبى طالب كرم الله وجهه ، ويتلوه عبد الله ابن عباس ، وهو تجرد للأمر كله . وقال ابن عباس : ما أخذت من تفسير القرآن فعن على ابن أبى طالب ، وكان على رضى الله عنه يثنى على تفسير ابن عباس ويحض على الأخذ عنه ، وكان يقول : ابن عباس كأنما ينظر الى الغيب من ستر رقيق ، وكان ابن مسعود يقول نعم ترجمان القرآن عبد الله بن عباس ، إلا أن الإجماع مع هذا يكاد يكون منعقدا على إمامة علىّ فى هذا الشأن . روى عامر بن واثلة قال : شهدت على بن أبى طالب رضى الله عنه يخطب فسمعته يقول فى خطبته : سلونى ، فوالله لا تسألونى عن شىء يكون الى يوم القيامة إلا حدثتكم به سلونى عن كتاب الله ، فوالله ما من آية إلا أنا أعلم أبليل نزلت أم بنهار ، أم فى سهل نزلت أم فى جبل . فقام اليه عبد الله بن أبى أوفى اليشكرى الملقب بابن الكواء ، فقال يا أمير المؤمنين (ما الذاريات ذروا ؟) ففسرها .

ولما قال عبد الله بن مسعود : لو أعلم أحدا أعلم بكتاب الله منى تبلغه المطىّ لأتيته ، قال له رجل أما لقيت على بن أبى طالب ؟ فقال بلى قد لقيته : وعن ابن مسعود أنه قال إن القرآن أنزل على سبعة أحرف ما منها حرف إلا وله ظهر وبطن ، وإن عليا رضى الله عنه عنده من الظاهر والباطن .

والسبب فى شهرة عبد الله بن عباس فى التفسير دعوة النبى صلى الله عليه وسلم له حيث قال : اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل . وقد روى عنه فى التفسير ما لا يحصى كثرة ، لكن

أحسن الطرق عنه طريق على بن أبى طلحة الهاشمى المتوفى سنة ١٤٣ ، وقد اعتمد عليها البخارى فى صحيحه ، ويليه طريق قيس بن مسلم الكوفى المتوفى سنة ١٢٠ هـ .

ويلى عليا وعبد الله بن عباس رضى الله عنهما فى التفسير ابن مسعود وأبى بن كعب وزيد ابن ثابت وأبو موسى الأشعرى وعبد الله بن الزبير وأنس بن مالك وأبو هريرة وجابر وعبد الله بن عمرو بن العاص وغيرهم رضوان الله عليهم أجمعين — كل هؤلاء مفسرون قبل أن يصير التفسير علما مدونا كما أسلفنا فى صدر هذا المقال وسنأتى على تراجمهم كمفسرين فى مقالات تالية إن شاء الله تعالى والله الموفق ؟

محمد حسين

فضيلة الحياء

قال النبي صلى الله عليه وسلم : « لكل دين خلق وخلق هذا الدين الحياء » .

وقال أمير المؤمنين على رضى الله عنه : « من كساه الحياء ثوبه ، لم ير الناس عيبه » .

وقال أديب : لا يزال الوجه كريما ما بقى حياؤه ، كما لا يزال الغصن نضيرا ما بقى لحاؤه (اللحاء بكسر اللام قشر خشب الشجر) .

أخذ هذا المعنى شاعر فقال :

يعيش المرء ما استحيا كريما ويبقى العود ما بقى اللحاء
وما فى أن يعيش المرء خير إذا ما المرء فارقه الحياء

نقول : رحم الله هذا الأديب الذى كان يعيش فى زمان تعرف فيه للحياء قيمة ! فماذا كان قائلا لو عاش فى هذا الزمان ، ورأى أن الذين يعيشون كراما معظمين بين الدهماء هم المجردون من الحياء ، الجريئون على الأعراض يثلمونها ، والأحساب يجحدونها . وليس الذنب فى ذلك ذنبهم ، ولكنه ذنب ضعاف النفوس من أهل هذا الجيل الذين يريدون أن يحمدوا بما لم يفعلوا ، ويخافون أن يذموا بما فعلوا . فهؤلاء هم الذين يشجعون الوقحاء ، ويمدونهم بالمال والجاه . ولو كان لهم من الفعال ما يحفظه لهم المجتمع لما خشوا بأس هؤلاء المتقولين ، وكان المجتمع هو الذى يرد عنهم بأسهم ، وينكل بهم أشد تنكيل .

فإذا ذكرت أهل الحياء فى هذا الدور من الفتنة الخلقية ، فحدث عن المهملين المنسيين ولا حرج . ولكن لا يبقى إلا ريثما ينتهى دوره ، ثم يعود الحق الى نصابه .

اختلاف الناس

فى عـدد أيام الشهور القمرية

بيان معنى قوله صلى الله عليه وسلم : (شهرا عيد لا ينقصان) :

فى شرح الإمام النووى على صحيح الحافظ مسلم رضى الله عنه بالجزء السادس وجه ١٤٣ بالهامش ، قال حدثنا يحي بن يحيي ، قال أخبرنا يزيد بن زريع عن خالد عن عبد الرحمن بن أبى بكرة عن أبيه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « شهرا عيد لا ينقصان » . رمضان وذو الحجة . ثم قال : وحدثنا أبو بكر بن أبى شيبة ، قال حدثنا معتمر بن سليمان عن اسحق بن سويد ، وخالد عن عبد الرحمن بن أبى بكرة عن أبى بكرة أن نبى الله صلى الله عليه وسلم قال : « شهرا عيد لا ينقصان » ، فى حديث خالد — شهرا عيد رمضان وذو الحجة — (يعنى أن إسحاق بن سويد لم يذكر فى حديثه عن عبد الرحمن بن أبى بكرة رمضان وذو الحجة ولم يسمهما) .

قال النووى الأصح أن معناه لا ينقص أجرها والثواب المرتب عليهما وإن نقص عددهما وقيل معناه لا ينقصان جميعا فى سنة واحدة غالبا ، وقال الخطابى لا ينقص ثواب ذى الحجة عن ثواب رمضان لأن فيه المناسك . وهو ضعيف ، والأول هو الصواب المعتمد . وهو معنى قوله صلى الله عليه وسلم : « من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه » وقوله صلى الله عليه وسلم : من قام رمضان إيمانا واحتسابا وغير ذلك ، فكل هـذه الفضائل تحصل سواء تم عدد رمضان أم نقص والله أعلم .

وكل هذا جاء من اختلاف الناس فى عدد أيام الشهور القمرية ٢٩ يوما أو ٣٠ ، وفى إمكان رؤية الهلال فى بلد وتعذر رؤيته فى غيره . وقد دلت حسابات المراصد الفلكية أن الشهر القمرى القانونى تحققت مدته من مقابلة الخسوفات القديمة بالحديثة ، وهى التى تعود الى دورتها السابقة تماما بعد مضى ٢٢٣ دورة من دورات القمر القانونية ، وذلك يتم فى مدة ١٨ سنة شمسية و ١٠ أيام

ثانية دقيقة ساعة يوم كسر يوم
ومنها حسبت مدة الأيام بين الهلالين فكانت ٢ر٨ ٤٤ ١٢ ٢٩ ، أى ٥٣٠٩ ٢٩

والطريقة المتبعة من قديم فى حساب الأهلة هى جعل الشهور العربية بموجب ذلك ، شهر ٣٠ يوما وشهر ٢٩

ومن البيان الآتى يتضح أن شهر رمضان إذا اعتبرت أيامه بالرؤية ٢٩ يوما لا ٣٠ وتم بأيامه الماضى من السنة ٢٦٥ يوما فان شهر ذى الحجة غير ممكن أن يكون بعد ذلك عدد أيامه ٢٩ يوما فقط لأن الأهلة الاثنى عشر يجب أن تكون مدتها ٧٧٠٨ ر ٣٥٤ يوما .

وبذلك يقتضى أن شهر الحجة وهو شهر العيد الثانى يكون ٣٠ يوما لتتم الدورة القانونية ٧٧٠٨ر٣٥٤ يوما فلا ينقصان شهرا العيد .

	يوم	كمر	يوم
محرم	٣٠	٥٣٠٩	٢٩
صفر	٢٩	٥٣٠٩	٢٩
	٥٩	٠٦١٨	٥٩
ربيع أول	٣٠	٥٣٠٩	٢٩
	٨٩	٥٩٢٧	٨٨
ربيع ثانى	٢٩	٥٣٠٩	٢٩
	١١٨	١٢٣٦	١١٨
جمادى الأولى	٣٠	٥٣٠٩	٢٩
	١٤٨	٦٥٤٥	١٤٧
جمادى الآخرة	٢٩	٥٣٠٩	٢٩
	١٧٧	١٨٥٤	١٧٧
رجب	٣٠	٥٣٠٩	٢٩
	٢٠٧	٧١٦٣	٢٠٦

	يوم	كمر	يوم
ماقبله	٢٠٧	٧١٦٣	٢٠٦
شعبان	٢٩	٥٣٠٩	٢٩
	٢٣٦	٢٤٧٢	٢٣٦
رمضان	٣٠	٥٣٠٩	٢٩
	٢٦٦	٧٧٨١	٢٦٥
شوال	٢٩	٥٣٠٩	٢٩
	٢٩٥	٣٠٩٠	٢٩٥
ذو القعدة	٣٠	٥٣٠٩	٢٩
	٣٢٥	٢٣٩٩	٣٢٥
ذو الحجة	٢٩	٥٣٠٩	٢٩
	٣٥٤	٧٧٠٨	٣٥٤

والذى يظهر بجلاء ـ والعلم عند الله ـ أن الاشارة فى الحديث الشريف تنص على تنبيه صلى الله عليه وسلم بما يقر عليه قرار الأرصاد الفلكية لحساب النيرين كما قال تعالى : (الشمس والقمر بحسبان) وإذا كانت تسمية الشهرين هى من تفسير الراوى (خالد) وليست من متن الحديث كما خلت منه رواية إسحاق بن سويد . كما وإن شهر العيد هو شهر شوال لا رمضان والعلامة فى شوال واضحة ٢٩٥ يوما أما الاجتهاد ففى تمام شهر رمضان إذ هو عند الميقاتيين يتم به الماضى من أيام السنة ٢٦٦ وبحساب الرصد ٢٦٥ يوما ونصف وربع .

ولم نجد أثرا لإدخال الأجر والثواب فى هذين الحديثين ؟

محمد مفظى

الحرب ضد بنت الحان

جاءنا من لوزان حيث المكتب الدولى لمكافحة المسكرات عن طريق جمعية منع المسكرات بمصر النشرة الآتية تبين ما حدث من إجراءات فى بعض الممالك الأوربية ضد انتشار الخمر :

فى النرويج : حرمت سلطات مدينة (أوسلو) بيع الخمور فيما عدا المطاعم ، ثم ألغت هذا التحريم الآن ، فالتمست جمعيات منع المسكرات استمراره ، وقد جاء فى أحد الملتمسات المرفوعة : إن الهدوء والأمن والنظام من دعائم الحياة الاجتماعية المثلى ، ولن يتأتى لنا ذلك إلا إذا غرسنا فى نفوس الشعب مقت الشراب ، وقد طلب المستر « جاكسون » رئيس الاتحاد النرويجى لمنع المسكرات الى الجمعيات مواصلة كفاحها ، كما أذاع الاتحاد المحلى لمدينة أوسلو نداء بهذا المعنى .

فى الدانمارك : منع بيع الكحول ، ولكن سمح بالبيرة التى لا تحوى أكثر من ٢ ٪ من الكحول ، وصرح أخيرا ببيع أنواع من البيرة القوية ، فكانت العاقبة وخيمة ، وتجلى للعيان نتائج السكر المميتة ، ومما يزيد الأمر شناعة وخطورة أن إطفاء الأنوار إجبارى ولا يخفى ما يتهدد الأمن العام من جراء معاقرة بنت الحان . وقد صرح المستر « لارسن ليدت » لجمعيات منع المسكرات بمواصلة عملها وعقد اجتماعاتها الخاصة بيد أنه حظر عليها الاجتماعات العامة ، ومما يجدر بالذكر أن أكثر الجمعيات نشطت نشاطها الطبيعى فى كثير من البقاع .

فى السويد : بالرغم من الصعوبات الراهنة تمكنت جمعيات منع المسكرات من إحياء يومها السنوى بتاريخ ١٩ مايو فكان يوما مشهودا بحق . إذ عقد فيه ٧٠٠ اجتماع وقد شهد الاجتماع الذى عقد فى الهواء الطلق بمدينة استوكهلم خمسة آلاف شخص ، ومما يجمل ذكره أن الخطباء فى كل مكان رددوا نغمة واحدة هى « أن الوقت الحالى يتطلب منا كل ما نملك من قوة جسمانية وخلقية » .

فى سويسرة : وجه الجنرال (جويزان) القائد العام للجيش السويسرى الى شباب سويسرة النداء الآتى : —

إن أرض الوطن وديعة فى يد شبابه ، ولن تسلم هذه الوديعة المقدسة من يد الغاصب المستبد إلا إذا سلم الشباب من غائلة الخمر .

فاتق الله أيها الشاب فى وطنك وفى نفسك ، واعلم يقينا أيها السويسرى الشاب أن فى يدك

وحدك الخاتم الذى ستطبع به بلادك ، فلا تلطخ جبهة الوطن ، ولا تطبعه بطابع المذلة والعار ولن يكفل لك ذلك إلا مجانبة الخمر ، فاغنم هذا الشرف بقوة عزيمتك .

القائد العام

الجنرال جويزان

في استراليا : أخذ اتحاد منع المسكرات على عاتقه إنشاء مشارب للبن وعصير الفواكه (بدلا من بارات الخمر) ، فرحبت السلطات العسكرية بهذا العرض الجميل ، ولكن مشروعا كهذا المشروع لا يبرز فى حيز الوجود بأقل من عشرة آلاف جنيه ، ومع أن هذا المبلغ لا يستهان به فقد تغلبت روح العزم والتضحية على كل العقبات ، وأضحى المشروع قاب قوسين أو أدنى من الظهور .

في فنلنده : أوضح ذلك المستر (فاجر هولم) وزير الشئون الاجتماعية فى خطاب قال فيه : « اتخذت اجراءات شديدة لمنع المسكرات أثناء الحرب ، وضوعفت هذه الاجراءات بعد انتهائها فأغلقت جميع المحال التى تحتكر بيع الخمور ثم فتحت ثانية فى الثامن من شهر ابريل . وعقب الوزير قائلا : اتضح لنا الآن أن أعصابنا التى تماسكنا تماسكا يدعو الى الاعجاب أثناء الحرب فقدت توازنها الآن من جراء استهلاك المشروبات الذى ارتفع ارتفاعا محسوسا وأعان عن نفسه بكثير من حوادث السكر المزرية ، لهذا أرى من اللازم إغلاق جميع الحانات على ألا تعود قبل منتصف مايو .

وقد طلبت جمعيات منع المسكرات ايقاف بيع المشروبات الروحية لأجل غير مسمى ، فاعتذر الوزير قائلا : إن الرأى العام قد لا يعضد مثل هذا الاجراء ، لأنه يجب أن يلاحظ أن لاحتكار بيع الخمر شأنا كبيرا فى ماليتنا ، ولكنا مع هذا التزمنا خطة أخرى تخفض مستوى الاستهلاك برفع أثمان الخمور ، فالمشروب الذى كان يساوى اللتر منه ٣٦ مارك (١٥ قرشا) من بضع سنين لا يقل ثمنه الآن عن ٨٠ مارك (٣٦٫٥ قرشا) .

وأوحى الوزير الى رجال الصحافة أن يشدوا من أزر جمعيات منع المسكرات ، ثم وجه النصح الى الجمعيات نفسها أن تلم شعثها لتستفيد من مجهودها المشتت بتعددها ، وأشار الى أنه من الكثير جدا ومن المرهق للحكومة أن تمد ثمانية وعشرين هيئة باعانات مالية ، وأشار الى أن عشرة جرائد خاصة بمنع المسكرات تصدر فى فنلنده وحدها ، وأظهر أسفه لأن واحدة من هذه الجرائد لا تحظى بقارىء من الشعب غير أعضاء الجمعيات .

واختتم قائلا : بأنه يرجو أن تتسع دائرة هذا الجهاد المحدود فى القريب العاجل ليكون أشمل نفعا وأعم فائدة وأكثر جدوى .

سكرتير الجمعية

محمد رضا

طنافس فاخرة للازهر

مكرمة من المكارم الملكية

لحضرة صاحب الجلالة الملك المعظم ، فاروق الأول حفظه الله ، مآثر خالدة فى تأييد الدين ، والتنويه بمكانته . فقد حرص ، حرس الله ذاته ، على تأدية فرائضه ، والقيام بواجباته نحوه ، فأشعر الشعب المصرى ، بل الشعوب الاسلامية قاطبة ، أن الدين حرمة يجب أن تصان ، وأن له مكانة يجب أن تحترم ، وأن مهمته من المجتمع الانسانى بمنزلة مهمة الروح من الجسد ، إذا زايلته فسد ، وتحللت عناصره شذر مذر .

إن هذه الأصول المقررة كُتبت كثيرا فى الصحف الدورية والكتب ، وخُطب بها على المنابر فى كل صقع من أصقاع الأرض ، ولكن تأثير كل ذلك لم يبلغ ما بلغه تأثير رعاية الفاروق للدين ، وتنويهه بكرامته ، من طريق عملى لا كلامى ، وهو فى ميعة الصبا ، وريق الشبيبة .

قام كثير من الملوك لهذا الدين بالخدم الجليلة ، وتباروا فى ذلك ، وبذلوا فى سبيله الأموال الطائلة ، ولكنهم لم يبلغوا من التأثير بأعمالهم ما بلغه جلالة الفاروق ، لأنهم قاموا بما قاموا به أيام كان العمل للدين من أعظم المفاخر ، والتقصير فى حقه من أشد الكبائر ، وأيام كان الناس لا يصدرون إلا عن الدين ولا يردون إلا موارده ؛ ولكن مليكنا المفدى جاء فى عهد اعتُبر الابتعاد فيه عن الدين ألمعية ، والتجاهل له مدنية ، فرفع عن العقول هذا الوهم القاتل ، وأزال من النفوس هذا الجهل الفاضح ، بما سلكه فى تأييد حجة الدين من سيرة لم تتفق إلا للأفذاذ من المملكين فى خلال العصور ، وخلائق لم تؤثر إلا عن كبار القلوب من صاغة الأمم ، فكان بعمله هذا رافعا كابوسا كان رائنا على كثير من الصدور ، فاستطاعت أن تستنشق الهواء طلقا ، وأن تواجه الحقيقة سافرة . وما هى إلا أيام حتى اتضح للغاوين أنهم كانوا فى خيلائهم مأفونين ، وفى علمهم السطحى واهمين ، وأن الدين ضرورى للاجتماع ضرورة أقوى روابطه ، بل هو روحه الذى يدبره ، لأنه يتحكم فى الأخلاق ، وهى كما تعلم مِساك الاجتماع وقوامه ، إذا ضعفت انحلت عراه ، وزايله ترابطه ، وفنى فى أمم أخرى .

هذه الحقيقة قالها الدين منذ وُجد ، وأثبتتها الفلسفة قديما وحديثا ، فعملُ جلالة الفاروق لإعادة سلطان الدين فى العهد الأخير ، يفوق كثيرا ما فعله سابقوه من السلاطين والملوك فى هذه السبيل .

لقد جلس هرون الرشيد مرة الى الامام مالك ليسمع منه ، فاعتُبر ذلك من أجل ما أُثر عنه من احترام الدين وأهله ، ووُضع فى أرفع مكان من تاريخه ، ولا يزال يتناقله الكتاب

والمؤرخون ، أفلا يعتبر جلوس صاحب الجلالة الفاروق للاستماع الى الامام المراغى أربع مرات فى كل رمضان ، واتخاذ ذلك تقليدا ملكيا يحتفل به كل عام ، فى حشد يحضره أركان الدولة وأقطابها ، من الأعمال الجيدة التى يسجلها التاريخ فى أرفع مكان من صحائفه الخالدة ؟

وقد أحيا جلالته سنة بطل العمل بها منذ أكثر من ألف سنة ، وتعد من الأعمال الفذة التى لها من التأثير الأدبى أكثر مما لأى عمل غيره ، ألا وهى صلاته بالناس إماما .

لا جرم إنه ليس فى وسع الفيلسوف الذى وقف قلمه على تسجيل تطورات النفوس ، أن يسجل لملك عصرى ما هو أبعد مدى فى تهذيب نفسية الشعوب من هذا العمل الخطير .

وإن من يمن نقيبة جلالة الفاروق أن يكون شيخ الدين فى عهده المبارك حضرة صاحب الفضيلة الإمام المراغى ، ذلك الرجل المصلح الذى يستطيع أن يكون عند ظن جلالته فى توثباته نحو الاصلاح الدينى علما وعملا واضطلاعا بكبريات الشئون ، فجاءت جميع هذه المساعى الكريمة فى إنهاض العاطفة الدينية متلائمة متوازنة يؤيد بعضها بعضا .

وإن مجلة الأزهر ترجو أن تحلى صفحاتها اليوم بتمام رغيبة شريفة لجلالة الملك المعظم ، وهى عمل طنافس قيمة يفرش بها أرض الجامع الأزهر محط رحال العلم والعلماء منذ ألف سنة .

فقد أصدر حفظه الله ، وأطال أيامه ، أمره الى سعادة ناظر خاصته أن يستصنع طنافس من أنفس ما تصنعه المصانع المصرية لفرش أرض الجامع الأزهر ، وكان ذلك فى شهر سبتمبر سنة ١٩٣٧ ، فحول هذا الأمر الى وزارة التجارة لتتولى الاشراف فنيا على تنفيذه . فتم هذا العمل العظيم وسلم للجامع الأزهر ليودعه بمخزنه ريثما يتم الترتيب اللازم لتسلمه نهائيا وفرشه بالمسجد . وقد أحصى مقدار ما صنع من هذه الطنافس بالأمتار المربعة فبلغت (٣٨٩٣٫٠٧) وهى مساحة واسعة لم يسمع بفرش مثلها فى تاريخ المساجد وأماكن العبادة . وقد بلغت نفقاتها ٦٠٣٤ جنيها و ١٥٠ مليم .

إن هذا العمل الكريم الذى يدل على أشرف صفات النفس وهى السخاء ، يدل فى الوقت نفسه على تعظيم شعائر الله ، وإكبار شأن المصلين المخبتين . وقد مدح الله فى كتابه العاملين على ذلك فقال : « ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب » .

فليَهنِئ جلالة الملك المعظم ما وفقه الله له من هذه الأعمال الجليلة ، فان بعضها يرفع القدر ويخلد الذكر ، فما ظنك بجملتها ، والله لا يضيع أجر المحسنين ؟

محمد فريد وجدى

صفحة من الصوفية الشرقية

تعاليم بوذا

المثل العليا فى سياسة النفس ومجاهدة الشهوات فى نظره

بوذا : هو المصلح للدين البرهمى الهندى فى القرن الخامس قبل المسيح ، ولمذهبه من الأتباع فى الهند والصين واليابان ما يقرب من أربعمائة مليون نسمة . والدعوة اليه لا تزال قوية فى تلك الأصقاع ، وقد رأينا أن نلم بحقيقة مذهبه تنويرا لعقول الباحثين فى الأديان الشرقية ، فنقول :

أصله ونشأته وتاريخ حياته :

بوذا : لقب له ، ومعناه العارف ، ويلقب أيضا بشيكـاموني ، ومعناه رسول المعرفة . واسمه شيرهانيا أى المصلح ، وجوتاما اسم أسرته ، وأحيانا يطلق عليه اسم أسرته .

ولد بوذا قبل المسيح بنحو ٩٦٠ سنة فى أسرة ملكية بأمارة نيبال ، وكان وليا للعهد ، فنشأ مترفا فى النعيم ، راغدا فى العيش ، متوسعا فى الثراء ، بعيدا عن منغصات الحياة ، حتى إذا بلغ التاسعة عشرة من عمره ، تم زواجه فى أعظم حفل عرف فى التاريخ ، وطابت له حياته الزوجية ، وظل منعما فى ظل هذه السعادة الوافرة ، يقطف من ثمارها الدانية ، ويرفل فى هنائه العريض ، فى قصر من أعظم وأجمل قصور الهند التاريخية ، وحوله الأوفياء من رجال حاشيته . ولكنه لم يلبث على هذه الحال طويلا حتى تحول نعيمه الى التفكر والتأمل فى النوع الانسانى ، وما هو عرضة له من الآلام والمصائب والموت ، فأخذ يفكر فى وسيلة تنقذه من ذلك ، أو تخفف عليه من وقعه .

فقيل : إنه كان فى طريقه يوما إلى النزهة فى موكبه الرسمى ، فإذا برجل قد أكلت الأمراض لحمه وشحمه ، وهو مشرف على الموت يستغيث ، فوقع بصره عليه ، فسأل من حوله عن هذا الحيوان الغريب الذى لم يتفق له رؤية مثله قط ، ولم يصدق أن إنسانا يكون بهذا الشكل ، فقيل له إنه مريض . هنالك ساءل نفسه : ما الذى دفع بهذا الإنسان إلى هــذه الآلام ؟ وما حقيقة هذه الأجسام ؟ وما هى النفس ؟ وما السبيل لمعرفة النفس ؟ وما هى الغاية من الحياة ؟ فاستغرق فى هذه الأفكار ؛ وما هى إلا فترة وجيزة من الزمن حتى ترك كل شيء ، وهجر زوجته وأسرته وولايته ، وخرج إلى حيث لا يسكن أحد ، ولا يشغله عن تفكيره شيء ؛ خرج إلى الغابات والأحراش هائما على وجهه ، طالبا للحقيقة ، راغبا عن الدنيا ، زاهدا فى ملاذها ،

معنيا بالتأملات ، رائضا نفسه على خشونة الحياة ، وهو فى التاسعة والعشرين من عمره . أقام على هذا الاعتكاف ست سنين ، حتى أحس بأن نوعا من المعرفة أشرق فى نفسه ، وقذف بنور فى قلبه ، لاحظ أن هذه الحياة تحوطها الأكدار والآلام من كل جانب ، بل إنها آلام تتبعها الأحزان ، وتجعل كل إنسان فى نقص دائم ، ولاحظ أن منشأ تلك الآلام ، التى طم سيلها فى هذه الحيـاة ، اللذات والأمانى التى تتبعها الرغبات . فاللذات فى أعقابها آلام وإن تطلعت النفس إليها ، وفى الحرمان منها آلام أيضا ، فلولا اللذات ما كانت الآلام ، ولولا استهواء الأمانى ، ما كانت آلام الحرمان ، فلا بد إذاً لدرء هـذه الآلام من القضاء على أصلها ، وذلك بالقضاء على اللذات وعلى تمنيها ، ولا يتم هـذا إلا إذا راض المرءُ نفسه على هجرها جملة ، ومجاهدتها ليكون للإنسان القدرة التامة على نفسه ، فكان الركن الذى أقام عليه بوذا مذهبه الخلقى هو أن يجاهد الانسان نفسه ، ويروض إرادته على ترك اللذات ، والصبر على الحرمان منها .

فنهض يدعو اليه ، غارسا محبته فى القـلوب ، بقوله وعمله ، ومبشرا به بين العالمين ، غير مبال بالصعوبات والعقبات التى كان يلاقيهـا فى سبيل الدعوة ، فالتف حوله شيب وشباب ، وصار له أعضاء وأنصار ، يدعون الى مذهبه ، وأخذوا يجوبون الآفاق هـداة مرشدين ، واستمر عددهم ينمو ، ودعوتهم تذيع ، ومذهبهم فى الحياة ينتشر ، وبوذا من ورائهم لا يكل ولا يمل ، حتى مات فى الثمانين من عمره .

أوصافه :

وصل بوذا الى تعاليم وحقائق عن طريق التجربة والموازنة الدقيقة بين الأمور والآراء المختلفة ، وكان على جانب عظيم من طيب النفس ، وحسن الخلق ، ولطف المعاشرة ، وكانت نفسه معتركا حامى الوطيس ، بين نوازع الجسم ، وما أخذ به نفسه من الرياضة ، حتى انتهى أمره بالانتصار المؤزر عليها .

تعـاليم بوذا لضبط النفس وتربيتها :

قال : إن الأمور التى تهدى الانسان الى الصراط المستقيم ، ليفوز بحياة سعيدة خالية من شوائب الآلام ودواعيها ، هى رياضة النفس وتربيتها ، فاختار بوذا للوصـول الى تلك الغاية السامية أمورا إذا التزمها الشخص ، لا يحيـد عن الجادة المستقيمة ، فى كل شأن من شئون حياته ، وهى على الترتيب الآتى :

١ — أن يتجه الإنسان فى أى أمر يريده اتجاها صحيحا مستقيما خاليا من كل سلطان للشهوة واللذة عليه . وهذا (الاتجاه) يؤدى الى :

٢ — تفـكير صحيح مستقيم ، لا تؤثر فيه نزعات الأهـواء ، ولا جموح الشهوات ، ولا اضطراب الأمانى والأحلام . وهذا التفكير يفضى الى :

٣ — نورانية تجعله يستطيع الوصول الى حقائق الأمور ، من غير أن يرمق بطرفه أى حجاب من حجب اللذات والأهواء .

٤ — ولا شك أن الأمور الثلاثة المذكورة يترتب عليها أمر رابع ، وهو : اطمئنان العقل والقلب الى فكرة خاصة ، من بين ما يعرض لها من الأفكار والآراء ، وبه يصير القلب فى روح وريحان من النعيم المعنوى .

٥ — والمتمم للأمور الأربعة السابقة : هو اللفظ المستقيم ، بأن يكون منطق المرء مطابقا لاعتقاده ، وهو الإقرار باللسان ، عما فى الجنان .

٦ — والأمر السادس الذى لابد منه لسلوك الطريق الوسط هو : مطابقة العمل للعلم ، فكل منهما مؤكد للآخر أو متمم له . وهذا يؤدى الى :

٧ — الجهد الصحيح لكى تكون الحياة مستقيمة سائرة على مقتضى السلوك ، والعلم الحق ، ومنع كل ماله صلة باللذات .

٨ — يترتب على الأصول السالفة : الحياة الصحيحة المستقيمة وهى المطلوبة .

وجماع القول أن لب الفضائل عند بوذا هو مجاهدة اللذات ، ورياضة النفس على تركها جملة ، والفناء فى سبيل الغاية ، وهى : المعرفة .

ومنشأ الرذائل عنده اللذات والانهماك فيها ، وذلك يرجع الى ثلاثة أمور مرتبة ، وهى :

١ — الاستسلام للملاذ . وهذا يؤدى الى :

٢ — سوء النية فى طلب الأشياء .

٣ — ويترتب عليه الغباوة وعدم إدراك الأمور على الوجه الصحيح .

ولأجل التربية العملية الحقيقية للنفس والاستيلاء على الارادة ، نهى بوذا أتباعه عن الأمور الآتية :

١ — لا تقض على حياة حى ، فالبوذيون لا يقتلون الحيوانات المؤذية وغير المؤذية مطلقا ، ولا يذبحون القرابين ولا يأكلون اللحم ، فهم نباتيون تدينا .

٢ — لا تأت أمرا يتصل بالحياة التناسلية إذا كان محرما .

٣ — لا تسرق ولا تغتصب ولا تطمع فى مال لا تستحقه .

٤ — لا تكذب ولا تقل قولا غير صحيح فيذهب بك فى الدرك الأسفل من النار .

٥ — لا تتناول مسكرا ما .

٦ — لا تأكل طعاما نضج فى غير أوانه .

٧ — لا تكلل رأسك بالزهور ولا تتخذ طيبا مّا .

٨ — لا ترقص ولا تحضر حفلة غنائية .

٩ — لا تقطن فراشا وثيرا .

١٠ — لا تأخذ ذهبا ولا فضة .

هذه هى التعليمات البوذية ، وهى سبيل السعادة فى نظر أتباعه ومريديه ، ولكن هل يمكن القيام عليها ؟ إننا كلما درسنا الأديان المختلفة زدنا اعتقادا بأن الدين عند الله الاسلام ، فهو أعدل طريقا ، وأقوم مذهبا ، وأجمع للفضائل من كل ما عداه ، فى يسر وهوادة لا تدع للمتنكب عنه عذرا ؟

أبو الحسنات محمد محيي الدين الهندي
« طاغور »

—

ما قيل فى المؤاخاة

قال لقمان : إذا أردت مؤاخاة رجل فانظر فان كانت محاسنه أكثر فارتبطه .

نقول : هذا كلام حكيم ، فان أى إنسان لا يخلو من النقص ، فمن كان يرجو أن يصادف إنسانا لا زلة له ، طال انتظاره ، وعز مطلبه ، وعاش عمره ولا صديق له .

وقال حكيم : ليكن اختيارك من الأشياء جديدها ، ومن الاخوان قديمهم .

وقيل : لا تستبدلن أخا مستفادا بأخ قديم ، فإنه قد لا يستقيم لك ، وتكون قد فقدت الأول . والى هذا المعنى أشار أبو تمام بقوله :

نقِّل فـؤادك حيث شئت من الهوى   ما القلب إلا للحبيب الأول
كم منزل فى الأرض يألفه الفتى   وحنينه أبدا لأول منزل

وقال حكيم : الصديق الألوف ، لا يباع بالألوف .

وقال مسلم بن يسار : ما من عمل إلا وأخاف أن يكون دخله ما أفسده إلا الحب فى الله . مرضت مرضا فلم أجد شيئا أوثق فى نفسى من قوم كنت أحبهم لا أحبهم إلا لله .

التشريع الاسلامى وأثره

الخالد فى المجتمع

فى عدد فارط من هذه المجلة عرضنا الجانب غير يسير من سماحة الشريعة الإسلامية ، وبلوغها أقصى درجات الكمال فى المسايرة لمرافق الناس وحاجاتهم ، وبينا كيف أنها أحكمت روابط هذا المجتمع بما آتته آحاده من الوصايا الحكيمة ، وما قررته له من الأحكام العادلة ، فما من حدث تتمخض عنه الأيام والليالى إلا وله فى الشريعة المطهرة مرد وعليه منها شاهد ودليل .

فالتشريع الإسلامى الذى يحكم روابط المجتمع ويضع قواعد منيعة لحماية الأسر والجماعات والأمم من الانحلال ، ثم يضع أحكاما للفرد بين المجموع فيحكم صلته بالآخر ويحبب له مكارم الأخلاق ، لأن الأخلاق فى واقع أمرها حياة كل اجتماع وزاده ، وقوته وعتاده ، هذا التشريع خليق بالبقاء وجدير بأن تدوم له أحكامه ما دامت الكائنات .

عُنى التشريع الاسلامى بإقامة الأخلاق على المبادىء النبيلة التى تتمثل فيها حياة الفرد وحياة الأمة كاملة . وقد بُعثَ الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم لتدعيم الأخلاق بما يصلح لتدعيمها من العقائد الصحيحة ، فكان أثره فيها معجزا من كل وجه .

فالشريعة تحض على السخاء والكرم والشكر على المعروف ، وتبين كيف يحذر الإنسان ربه وتبين عاقبة حسن الظن بالله والناس ، وتحمل إلينا بلسان صاحبها صلى الله عليه وسلم إن كمال الدين فى النصيحة وإن المستشار أمين . وإن الدال على الخير كفاعله ، وإن الدرجات العلا فى قضاء حوائج الناس ، وإن العدل أساس الملك ، وإن من أحب الله أحبه الله والعباد ، وما الى تلك المبادىء السامية المتصلة بالنفوس الخيرة مما لا يدخل تحت عد ولا يحيط به حصر ، والتحدث عن تلك المبادىء وما إليها كثير الشعب ، متنوع المشارب ، لا تستنفده بحوث أو أسفار ، ولا يقوم بتحليلها جيل أو أجيال ، وإنما ينشده كل فرد فى جيله فى الأفق الذى يعيش فيه ، وإلا فأين تشريع وضعت أصوله على الأرض ، وأحكمت مراميه بين أهل عصره وجيله ، فى مبادئه وأحكامه ، من تلك المبادىء السامية التى تخضع لها النفوس بما يلقى اليها من روح الإذعان والقبول . ويهديها الى أسمى معارج الكمال حين يتحدث التشريع الاسلامى عن الحذر من الله والناس ، فيقول سبحانه وتعالى : « ويحذركم الله نفسه والله رءوف بالعباد » « واعلموا أن الله يعلم ما فى أنفسكم فاحذروه واعلموا أن الله غفور حليم » .

وتحدثنا السنة المطهرة فيما ورد على لسان صاحب الشريعة فيما أخرجه البخارى ومسلم عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (الناس كإبل مائة

لا يجد الرجل فيها راحلة) والحديث يقصد الى أن مائة الإبل قد لا تجد فيها راحلة ، وهي القوية في سيرها السهلة في خطاها ، فلا يجد راكبها في سيرها عناء ولا اضطرابا في أعصابه ولا خفقانا في قلبه ، فهي نادرة الوجود في مائة من الإبل ، وكذلك الانسان الكامل بخلائقه وسمو نفسه في الناس يكون صادقا فيهم قاضيا لحاجتهم لا يحمل في صدره لأحد إحنة ولا موجدة ، ولا تغيره سفاسف الأمور ولا سخائم الصدور ، ويحدثنا عمرو بن الفغواء الخزاعي رضي الله عنه فيما أخرجه الامام أبو داود في صحيحه فيقول : « دعاني رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد أراد أن يبعثني بمال الى أبي سفيان يقسمه في قريش بمكة بعد الفتح ، فقال : التمس صاحبا فجاءني عمرو بن أمية الضمري فقال : بلغني أنك تريد الخروج وتلتمس صاحبا . قلت أجل . قال فأنا لك صاحب . قال فجئت رسول الله صلى الله عليه وسلم وقلت قد وجدت صاحباً فقال من ؟ قلت عمرو بن أمية الضمري . قال إذا هبطت بلاد قومه فاحذره . فإنه قد قال القائل أخوك البكري ، فلا تأمنه . فخرجنا حتى إذا كنت بالابواء قال إني أريد حاجة الى قومي بودّان ، فتلبث لي . قلت راشداً فلما ولى تذكرت قول النبي صلى الله عليه وسلم ، فشددت على بعيري أوضعه حتى خرجت ، حتى إذا كنت بالأصافر إذا هو يعارضني في رهط ، فأوضعت فسبقته . فلما رآني قد فته انصرفوا . وجاءني فقال قد كانت لي الى قومي حاجة . قلت أجل . ومضينا حتى قدمنا مكة . فدفعت المال الى أبي سفيان » اهـ .

فصريح الحديث يدل على أن الحذر من الأصدقاء والأقرباء وذوي المنازل المختلفة عند الرجل خليقة من خلائق الرجل المؤمن ؟

عباس طه

فضل الكتابة

قال رجل من الأنصار للنبي صلى الله عليه وسلم : إني لأسمع الحديث ولا أحفظه يا رسول الله . فقال له النبي : استعن بيمينك ، أي اكتبه .

وقال عليه الصلاة والسلام : قيدوا العلم بالكتابة .

وقال الشعبي : إذا سمعت شيئا فاكتبه ولو في الحائط .

نقول : انظر كيف قلب الاسلام أوضاع الجاهلية في عشية وضحاها ، فبعد أن كان العرب مشهورين بالأمية حتى أطلق عليهم القرآن كلمة الأميين ، أصبحوا يتواصون بالكتابة حتى على الحائط لمن لم يجد ورقا .



مات الشرق بموت (دارا) وعادت اليه الحياة بواسطة محمد
النهضة الأوربية أوجدتها المدنية الاسلامية
(سيباستيان شارلتى)

أدهش المفكرين من أهل المدنية الحاضرة سرعة نمو المدنية الاسلامية وإشراقها إشراقا أخذ بالأبصار والعقول ، حتى فرضت زعامتها على العالم كله ، مما لم يعهد له مثيل فى تاريخ التطور البشرى ، وخاصة إذا كان حامل لواء هذه المدنية شعباً لم تعرف له أصالة فيها . فكان الكثيرون من كتاب الغرب ، لأجل أن يفروا من تبعة تعليل هذا الأمر الجلل ، يغفلون التنويه بعظمة المدنية الاسلامية . والى هؤلاء وجه الكلام المسيو سيباستيان شارلتى Sébastien Charlety فى جريدة (ديبيش دو تولوز) الفرنسية فقال :

« إننا كثيرا ما نظلم المدنية الاسلامية العظيمة ، ولا نذكر أنه لما قدّم سفير هارون الرشيد الى الامبراطور شارلمانى ساعة حائط ، كان إعجابه بها بالغا ، ونحن لا نمثل لأنفسنا هذا الأمر بأنه يشبه فى أيامنا هذه أن يقدم أحد رواد المجاهيل الى ملك زنجى فونوغرافا ، ويسمعه من أناشيده »

« لقد بالغ الناس فى تقدير الصفات العقلية العالية للعرب الفاتحين ، مما أصبح لا يمكن تصديقه اليوم . وقد حُلت هذه المسألة على الوجه الآتى : وهو أن عرب البلاد العربية والبدو من أهل القبائل لم تدم دولتهم إلا قرنا واحدا وهى دولة الأمويين . فلما جاءت الدولة العباسية سنة (٧٥٠) انسحب هؤلاء البدويون بعد أن أتموا عملهم الحربى ، وعادوا سيرتهم الأولى من الحياة المتنقلة .

« ولقد اعتاد الناس كلما ذكروا تاريخ المسلمين أن يذكروا العرب ، والواقع أن الذين كان يطلق عليهم هذا الاسم لم يكونوا عربا ، ولكنهم كانوا أهل المدن المصرية والكلدانية والسورية ، أى المتمدنين القدماء من أهل الشرق الخالد الذين كانوا قد قبلوا الاسلام دينا لهم ، وحذقوا اللغة العربية .

« فى ذلك الزمان شرع هؤلاء المتمدنون العريقون فى المدنية ، الذين مر عليهم عهد المدنية اليونانية ، فى ترجمة كنوز المكتبات اليونانية الى اللغة العربية ، وبواسطتهم ولدت المدنية الاسلامية . فلم تكن هذه المدنية والحالة هذه من عمل العرب ، ولكنها كانت من عمل أولئك الذين كان يطلق عليهم فى القرون الوسطى اسم سارازان (Sarrasins) (١) وهم الورثة المباشرون لمصر وكالدانيا (بابل) .

« إننا نرى بأعيننا بدائع ألف ليلة وليلة ، والفن الأسبانى العربى فى العمارة ، ولكن يجب أن يكون الانسان متضلعا فى العلوم لكى يفهم أن هؤلاء الذين اكتشفوا علم المثلثات والجبر ، والذين رقوا علم الفلك ترقية عظيمة جدا فى مراصدهم المزودة بأدق الآلات ، ونهضوا بعلم الطب فى مستشفياتهم نهضة قوية ، وألفوا علم الكيمياء من معلومات كانت منثورة لا تجمعها جامعة ، فعلوا ذلك كله لأنهم اعتمدوا فى معارفهم على الأسلوب التجريبى .

« أما فى عالم تطبيق العلوم الطبيعية ، إذا أردنا أن لا نقول شيئا عن تبريزهم فى الزراعة وصناعتى التعدين والنسج ، فإن العرب أورثونا البوصلة وبارود المدافع ، وهذا الاكتشاف الضخم وهو عمل الورق ، قد أدى الى الحصول على الكتب بثمن زهيد .

« وقد قيل لنا إن نهضتنا ، كما يدل اسمها عليها ، كانت وليدة الآداب اليونانية والرومانية . وهذا كذب تقى(٢) . والحقيقة أنه وليد المدنية العربية التى جلبتها الى بلادنا الحروب الصليبية . وقد عُلم من عرض تاريخ المدنيات الانسانية ، وهو تاريخ هذا العالم الأرضى ، أنه قد وُجدت مدنيات قديمة ذات أصول شرقية ، تلتها المدنية اليونانية الرومانية ، ثم المدنية العربية طوال عهد القرون الوسطى ، ثم عقبتها مدنيتنا الراهنة . وقد جحدنا فضل المدنية العربية علينا كما جحد اليونانيون قبلنا فضل المدنية المصرية . ولكن أمر هذا الجحود لا يهم كثيرا لأننا لم نُضع من حقيقة هذا التاريخ شيئا .

« الاسلام فى القرن العشرين أصبح على وشك انقلاب عظيم ، وإن تحفزاته لتهز الكرة الأرضية ، ومعنى هذا أن الأمبراطورية الاسلامية تحاول أن تبعث فجأة ، والعلاج الذى يراه الشرقيون لتحقيق ذلك هو أن يأخذوا إخذ الغربيين طفرة بواسطة قرارات حكومية إجبارية ، فهم يريدون أن يكونوا مع بقائهم على ما هم عليه . ولذلك تراهم يتربصون بالمدنية الغربية الدوائر . وهم على حق فى ذلك إطلاقا . فان مدنيتنا ستبيد كما بادت المدنية اليونانية الرومانية . ولكنهم يتخيلون موتها فجأة ، وهنا هم واهمون . فان الشرق مات قبل الآن بموت (دارا) (٣)

---

(١) هذه الكلمة مشتقة من فعل شرق (بتشديد الراء) وكان يطلقه أهل أوروبا على المسلمين حين زحفوا لفتح بلادهم . (٢) يريد بهذا التعبير أن الحامل عليه كان التعصب للدين . (٣) دارا ملك الفرس الذى [illegible] القرن الرابع قبل الميلاد وقهره واستلحق مملكته بالاسيوية سنة (٣٣٠) ق . م .

وعاد فحيي بظهور محمد ، ولكن بين موته وحياته مضت ألف سنة فيجب ، علينا أن نتذكر هذا الرقم لنطمئن به أنفسنا » ؟

شارل سيباستيان

(مجلة الأزهر) : إن ما كتبه المسيو سيباستيان وقال إنه اقتبسه من كتاب (أخلاق وعادات إسلامية) للاستاذ ا . ف . جوتييه ، إن كان قصد منه الغض من قيمة الإسلام فى تطوير العقلية الإنسانية من طريق الطفرة ، فهو لم يؤد الى ما قصده منه ، لأن هذا الدين لم يقل : إنه جاء لترقية أمة معينة ، وبعثها لتأتى بالعجب العجاب طفرة ، حتى يكون فى تدليله بأن الذى قام بالمدنية الإسلامية هم رجال دخلوا فيه من أجناس شتى ، كانوا قبل أن يجىء مستعدين للارتقاء بما صقلته المدنية اليونانية الرومانية من عقولهم ، وما لطفته من شعورهم ، نقضٌ لهذا الوعد . ولكن الإسلام قال : إنه جاء للبشر كافة ليفك عن أعناقهم أغلال التقاليد الضارة ، ويجلو عن بصائرهم غشاوات العقائد الباطلة ، ليحيوا حياة صحيحة ، يحققون بها ما الفطرة الانسانية أهل لتحقيقه من الوصول الى المثل العليا فى العلم والعمل . وهو لم يسند قيادة العالم فى هذا السمت لأمة من الأمم ، ولكنه ترك المجال حرا للمتنافسين فيه من كل جنس وبيئة .

فاذا صح ما ذكره المسيو سيباستيان من أن الذين قاموا بالمدنية الاسلامية هم أقوام من أعرق الشرقيين فى الممالك التى افتتحها المسلمون ، وليسوا هم العرب أنفسهم ، لم يحط ذلك من قيمة الاسلام ، ولم يناقض أصلا من الأصول التى قررها ، أما قال الله فى آية محكمة من كتابه : « يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، إن الله عليم خبير ؟ » أولم يقل رسول الاسلام محمد صلى الله عليه وسلم : « لا فضل لعربى على أعجمى ، ولا لأبيض على أسود ، إلا بالتقوى أو بعمل صالح » ؟ .

ولكن المسيو سيباستيان غاب عنه أن العرب وإن كانوا لم يبرزوا فى العلوم والفنون التى ابتنت عليها المدنية ، وقامت على أركانها ، بسبب ما كانوا عليه من البعد عنها ، فانهم ساهموا فى إيجاد هذه المدنية مساهمة لا تقل عن مساهمة الذين باشروها بأنفسهم ، ذلك أنهم مهدوا الطريق لوجودها ، وأمدوها بالأموال لتوسيع نطاقها ، واستبقاء حياتها ، والاستفادة من ثمراتها .

يقول المسيو سباستيان : إن عمل العرب اقتصر على فتوح البلدان ، ثم انسحبوا من الميدان ، فتولاه الذين أسلموا من أبناء قدماء المصريين والبابليين . وهذا قول بعيد عن التحقيق ، ألم يكن من العرب أمراء المؤمنين ، وكثير من علماء الدين ، وحكام الأقاليم ، والقضاة والمفتين ؟ فهل كان نقلة العلوم الذين يذكرهم يستطيعون أن يقوموا بما قاموا به من نشر الكتب العلمية

وترجمتها ، لو كانت هذه الهيئة الحاكمة لا ترضى عنه ولا تساعد عليه ؟ أنسى ما استفاض فى تاريخ المسلمين أن أمراء المؤمنين ووزراءهم كانوا هم الذين أوجدوا هذه الحركة العلمية ، وسخروا المترجمين لترجمة المؤلفات اليونانية والكلدانية وغيرها ، وبذلوا لهم من الأموال ما لا يكاد يصدقه العقل ، وشجعوهم تشجيعا لم يؤثر عن قادة الأمم قبلهم ؟ فهل كان يخيل له أن هذه النهضة تقوم لها قائمة لولا هذه الأموال الطائلة التى بذلت فى سبيلها ؟

فإن كان قيامها من الممكنات فلم لم تقم بنفسها قبل مجىء الاسلام ؟

إن العرب والبدو الذين يذكر أنهم قد قصروا عملهم على الفتوحات والتبسط فى الأرض ، كانوا يستطيعون أن يعملوا ما عمله الفاتحون قبلهم ، من هدم المعابد والهياكل ، وإحراق ما بها من ذخائر المؤلفات ؛ أفلا يكون تركهم لها قائمة وترك ما فيها لأهلها ، من المفاخر التى لم يسجل مثلها لأمة فاتحة ، وهم يعلمون أن فى تلك الهياكل والكنائس من أعلاق الذخائر الشىء الكثير ، فعفوا عنه كله وتركوه لأهله ، وأمنوهم على إقامة شعائرهم . ومن أغرب ما يؤثر عنهم من روح التسامح الدينى أنهم تركوا للشعوب التى فتحوا بلادها كل مقدساتها حتى التماثيل التى كانوا يقدسونها .

فهل هذه الروح العالية من التسامح التى كان لا يعرفها أهل ذلك العصر ، واحترام أهلها حتى الذين بقوا منهم على يهوديتهم ونصرانيتهم أو مجوسيتهم من المترجمين ، قليلة الأثر فى بعث الهمم على نقل تلك العلوم وزيادة مادتها ؟

إذا كان المسيو سباستيان يبحث عن علة بسيكولوجية ، لسرعة تطور العقلية الاسلامية وتبريزها فى العلوم الطبيعية ، ويرضيه منها ما نقلناه عنه هنا ، أليس فى تسامح العرب الى هذا الحد فى معاملة الأجانب عن دينهم ، والابقاء على معابدهم وهياكلهم ، وما فيها من الأصنام والأنصاب ، مجال فسيح للبحث عن علة هذا التسامح فى نفسية شعب كان جاهليا بالأمس لا يقيم للتسامح وزنا ؟

الاسلام لا يهمه أن يقوم بما أهاب بالناس للقيام به من نشر العلم وبناء المدنية الفاضلة هذا الشعب أو ذلك ، لأنه دين الانسانية قاطبة ، ولديه أبناء آدم كلهم سواء ، ولا يهم العالم أن يعرف أى عنصر من العناصر الاسلامية تولى بناء مدنيته الباهرة ، ولكن يهمه أن يتحقق أن الدين الإسلامى هو الذى دعا إليها ، وبعث الهمم لإيجادها ، ليدحض به ما أرجف به المرجفون من أنه دين بدوى محض ، لا ينتظر منه عمل فى تشييد أية مدنية ، بل هو مسوق لأن يهدم أية حضارة يصادفها فى طريقه . وقد قال بهذا الضلال البعيد كتاب كثيرون ، فالذى يهم هؤلاء اليوم أن يدرك هؤلاء أنهم فى تأكيدهم ما ادعوه مبطلون .

أما إذا كان مرمى المسيو سباستيان أن يوهم قراءه أن أمر المدنية الاسلامية التى أصبح تاريخها يبهر العقول ، لم يقم به العرب الأقحاح ، ولكن أولئك الذين دخلوا فى دينهم من آحاد

الأمم التي كانت متمدنة ، فتابعوا طريقهم فى استثمار عقولهم وفنونهم ، فنُسب ما عملوه للاسلام وليس الاسلام منه فى شيء ، قلنا إذا كان المسيو سباستيان يرمى الى هذا فهو على خطأ عظيم ، لأن ما قلناه فى صدر هذا المقال يكفى فى إبطاله ، ونزيد عليه هنا : أن هؤلاء الذين يصفهم المسيو سباستيان بأنهم صاغة المدنية الاسلامية ، كانوا موجودين حيث كانوا قبل البعثة المحمدية وبعدها ، فكانوا قابعين فى أكسار بيوتهم لا يستطيعون أن يأتوا عملا ، فلم لم يقوموا ببعض ما قاموا به والاسلام باسط رواقه عليهم ؟ أليس لأنهم كانوا ممنوعين عن ذلك ، وكانوا لا يجدون من المحيطين بهم مشجعا عليه ؟ بل كان كثير منهم يرى رأى قادتهم فى أن التبحر فى البحوث مخالف للدين ، وأنه يجر الى النار ؟

فلا يجوز للمسيو سيباستيان وهو يعلم كل هذا بالضرورة أن يغفله فى سبيل تعليل ظهور العقلية الاسلامية سامية كل السمو طفرة . وما أظنه قد بلغ مراده من هذا التعليل ، فقد يعترض عليه معترض قائلا :

إذا كنت تعلل ما ظهر به المسلمون فى القرن الثانى من التطور العقلى بأنهم كانوا أبناء وأحفاد أقوام عاشوا فى المدنية آمادا طويلة ، وتمرست عقولهم بالمعارف والنظريات أجيالا متعاقبة ؛ فبم تعلل تطور عقلية أصحاب النبي وآدابهم فى جميع أحوالهم ، وعدلهم فى حربهم وسلمهم ، ورحمتهم برعاياهم بصرف النظر عن عقائدهم وأجناسهم ؟ بم تعلل هذا الانقلاب الضخم فى شعب كان جاهليا جافيا بالأمس ، لا يعرف غير سلطان القوة ، ولا عدلا إلا ما تمليه عاداته القومية ، ولا رحمة إلا ما يتفق وأوهامه التقليدية ، فانقلب شعبا ، مدنيا لطيفا ، لا يعرف لغير الحق سلطانا ، ولا سوى العدل المطلق ميزانا ، رحيما بالضعفاء الى حدود الايثار ، عاطفا على المقهورين الى مستوى المساواة . فهل كانوا تمرسوا فى جاهليتهم بهذه الخلال التي يستحيل ان يتحلى بها شعب من طريق الطفرة ، بل لا بد لأجل أن تصبح من طبيعة الجماعة أن تتمرس بها أجيالا طوالا .

فالإسلام الذى هو أصل هذا الخير كله هو الذى يجب أن يُنوّه به ، وأن يُشاد بذكره ، وأن يُستنزل عجب الناس من اشتماله على جميع عناصر الترقى البشرى حتى لا يعقل أن يوجد فى التعاليم البشرية أجمع منه وأشمل لهذه العناصر التي تتولى اليوم النوع البشرى فى جميع مجالات النشاط العقلى والمادى .

نهضة الاسلام فى القرن العشرين .

قال المسيو سباستيان فى هذا الموطن : إن المسلمين يتحركون للنهوض ، وإن رجات حركاتهم تهز الكرة الأرضية ، والعلاج الذى يأخذون به أنفسهم هو أن يأخذوا إخذ الغربيين طفرة بأوامر حكومية . وهم يتربصون بالمدنية الأوربية التلاشى والانحلال الخ .

نقول : أما أن المسلمين يتحركون للنهوض ، وأن رجات حركاتهم تهز العالم الأرضى كله فصحيح ، فانك لا تكاد تجد ركنا من أركان الأرض لا يشغل أهله من أمر النهوض شاغل مستوعب لأفكارهم ، ولكنهم لا يرجون ذلك من طريق هلاك المزاحم لهم ، أى ليخلوا لهم الجو دونه ، وهم مقيمون على ما هم عليه من الحالة النفسية والخلقية . فهم يعرفون أنهم ما تدهوروا الى الحد الذى وصلوا اليه إلا لتركهم تعاليم الاسلام الاصلاحية ، ويرون بأعينهم أن الغربيين لم يبلغوا الى ما بلغوا اليه إلا بالقيام على أصول وآداب قرآنية . وهذا هو السبب الذى يدفعهم لأن يأخذوا إخذ الغربيين من طريق الاكراه الحكومى .

فاذا كانوا يرون بعد هذا أن المدنية الغربية محكوم عليها بالتلاشى ، فليس ذلك لما يتسرب اليها من العلل من ناحية هذه الأصول المرقية ، ولكن من ناحية ما التاثت به من العيوب الأدبية ، وما اندس الى صميم اجتماعها من العوامل المفككة . وهم يعلمون أن تلاشيها لن يجىء فجأة ، وأنها فى تلاشيها ستترك صدوعا فى العالم البشرى يصعب رأبها على المدنية التى تخلفها إلا بعد بذل مجهودات عنيفة .

مات الشرق بموت (دارا) وحيى بمجىء محمد .

هذه أحق وأجمل عبارة نؤثرها عن كاتب أوروبى ، وهى من قبيل الاعتراف بالحق لصاحبه .

ولو نظرت نظرا علميا لوجدت الأمر كما قال : فإن الأمة الممثلة لعظمة الشرق كانت فى ذلك العهد الأمة الفارسية ، وقد أدال دولتها الاسكندر ، واحتل بلادها ، ولما مات أصابها ما أصاب سائر الممالك التى دوخها العاهل المقدونى ، والتاثت من عوامل التحلل والتدهور بما تلتاث به كل بلاد تصدعت أركانها ، وتآكلت وطائدها ، فعاشت كما شاءت الحوادث ، لا كما شاءت المبادئ . وكل ما قام فى الشرق من دولة بعدها لم تقم بقواها الذاتية ، وبروحها المدبر ، ولكن قامت على أنقاض دولة سبقتها فى الوجود ثم بادت .

فلما جاء محمد صلى الله عليه وسلم بعثت دولة الشرق ببعثه ، ظهرت وليدة ، ثم ترعرعت ونمت ، وشبت وازدهرت ، بروح خاصة حلت بها ، حاصلة على جميع مميزات الأرواح التى كتب لها البقاء ، تحوطها العوامل المدبرة ، وتحفها الأصول المقررة ، وتتراءى لها المثل العليا . فأدت للعالم رسالة لم تؤد له مثلها دولة فى مدى تاريخ الانسانية كله .

فان كانت هذه الأمة تتحفز للنهوض اليوم ، فانها إنما تفعل محفوزة ببواعثها الذاتية ، وقواها المعنوية ، غير مبطنة شرا بأحد ، على السمت نفسه الذى اتبعته فى وجودها الأول ؟

محمد فريد وجدى

الحلل السندسية فى الأخبار والآثار الأندلسية .

تم طبع المجلد الثالث من المعلمة الأندلسية التى وضعها الكاتب الكبير الأمير شكيب أرسلان ، وهى تاريخ مفصل للأندلس ضمنه زبدة تحقيقاته الشخصية ، ومشاهداته العيانية ، وأضاف إليها ما وقف عليه فى عشرات من الكتب التى وقعت له بين عربية وأفرنكية . وقد تناول هذا المجلد الكلام على شرق الأندلس ومملكة بلنسية ومرسية وجغرافيتهما وأحوالهما وأهلهما ، ووصف مدن الأندلس وحصونها وتراجم رجالها وملوكها ، ودول الأندلس وملوك الطوائف الخ الخ وهو كتاب جدير بالقراءة والاقتناء ، ليس له نظير فى المطبوعات العربية . وثمنه عشرون قرشا غير أجرة البريد .

كيف تنجح فى الحياة .

ثمانمائة حكمة لمشهورى الفلاسفة والعظماء .

جمع هذه الحكم ورتبها الأستاذ الفاضل أحمد افندى أبو الخضر منسى ، وهو كتاب طريف لا يسأم مطالعه ، يتنقل به من حكمة الى حكمة بدون تكلف ، وكل منها كما لا يخفى زبدة تجربة عملية ، أو إلهام قلب متعطش للحقيقة . فالكتاب يمثل خلاصة مستقطرة لأكبر العقول التى ظهرت بين ظهرانى الناس منذ زمان طويل الى اليوم .

من أطرف ما نؤثره عن هذا الكتاب ، أنه افتتحه بقول للفيلسوف تولوتستوى هودواء لأكثر الناس فى هذا العصر لو اتبعوه ، وهو : « إننا نأكل ثلاثة أضعاف ما تتطلبه أجسامنا فنصاب بأمراض لا عدد لها تصرم حبل حياتنا قبل أوانها »

إننا نوصى باقتناء هذا الكتاب وإدمان النظر فيه ، وحمل الأبناء على مطالعته ، ووضعه على متناول الأيدى من الكافة ، فانه خير ما تتغذى به العقول والأرواح . ثمنه سبعة قروش .

مناهل العرفان فى علوم القرآن .

هذا كتاب حافل بالعلم قصد به مؤلفه حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ المفضال الشيخ محمد عبد العظيم الزرقانى أن يضع كتابا جامعا لعلوم القرآن الكريم ، فجمع فيه كل ما يتعلق بهذا المطلب الخطير جمع عالم نحرير ، وألم بما اعترى كل بحث من شبهات المشتبهين ، وأقاويل الملحدين ، فجاء عملا جمع بين القديم والحديث جمعا يعسر أن تصادفه فى كتاب واحد فى أهم موضوع من المواضيع الاسلامية .

وإنا لنكتفى اليوم بهذه الاشارة راجين أن تتاح لنا فرصة تحليله تحليلا دقيقا خدمة للعلم ، وليس هذا بكثير عليه .

جماع العلم :

لحضرة الأستاذ الجليل صاحب الفضيلة الشيخ احمد محمد شاكر اختيارات ممتعة يتحف بها قراءه الكثيرين من حين لآخر . وقد أتحفنا هذه الدفعة بكتيب جم الفائدة ، غزير المادة ، وهو كما قال عنه : « درة كريمة من درر الشافعي ، وطرفة من أبدع طرفه . حكى فيه مناظرات بينه وبين بعض أهل العلم فى عصره فى أصول الاستدلال ، أو إن شئت : فى بعض مسائل من أصول الفقه ، وأكثر ما يدور الجدال فيه فى الاحتجاج بالأخبار ، وحجة الاجماع وحقيقته ، والأمر والنهى ، ونحو ذلك » .

وهذا أبلغ ما يقال فى تقريظ هذا الكتاب ، وفى التحضيض على مطالعته ، وهل ينتظر أحد أن يحدثه أعلم من الشافعي فى هذه الموضوعات ؟

التشريع الاسلامى : تاريخه وفلسفته .

هذا كتاب وضعه مؤلفه حضرة الاستاذ الجليل جلال الحنفى خطيب جامع عطاء وإمام جامع الأزبك ببغداد ، وهو كما يدل عليه اسمه يبحث فى حكمة التشريع الإلهى . وهو موضوع تتطالّ إليه الأعناق ، والشريعة الاسلامية بحر طام بالأصول الشرعية التى تعتبر مثلا عليا لكل شريعة عادلة . والأستاذ مؤلف هذا الكتاب ذو عقلية عصرية جمع بين التالد والطريف من المعلومات . فنرجو لكتابه الرواج الذى يستحقه . وقد طبع فى مطبعة السعادة بجوار المحافظة .

الأمراض الاجتماعية وعلاجها :

هذا مؤلف جديد لحضرة الاستاذ الجليل على فكرى الذى كان أمينا أول ورئيس المغيرين لدار الكتب المصرية ، وهو مشهور بمؤلفاته الكثيرة القيمة التى يغذو بها المطبوعات العربية بين آن وآخر خدمة للعقول والقلوب فى العصر الحاضر .

كتابه الذى نحن بصدده اليوم يحاول فيه محاربة أربعة أدواء قتالة انتشرت فى كل صقع وأصابت أهله بالويلات الجسام ، وهى الزنا والمقامرة وتعاطى الخمر والتعامل بالربا الفاحش . ولست فى حاجة لأن أقول إن الأستاذ على فكرى من الأفراد القلائل الذين منحوا حب الخير لذاته ، فهو إن كتب فلا يفعل إلا مسوقا بعاطفة إنسانية شريفة ، فيجىء ما يكتبه نصحا مؤثرا يقع من القلوب موقع القبول ، وهو واسع المجال فى خاصة التبيين ، فلا يترك مما يتصل بما يعالجه من الموضوعات مناسبة حتى يلم بها ، فيجد القارىء نفسه بين دين وأدب وتاريخ وفكاهة فلا يسأم المطالعة ، ولا يرجئها . وهذه مزية لا يحظى بها جميع المؤلفين وخاصة الذين يتصدون لمعالجة القلوب .

فنشكر لحضرة الاستاذ الموقر صنيعه ، ونرجو له المزيد من التوفيق .

بسم الله الرحمن الرحيم

السيرة المحمدية
تحت ضوء العلم والفلسفة

الحالة النفسية والاجتماعية للمسلمين بعد انتصارهم على قريش ببدر

قد تمر على المجتمعات فى بدء حياتها حوادث تؤثر فى وجودها من ناحية ترابط آحادها وتماسك أجزائها ، ولـكنها لا تبلغ ، مهما عظم شأنها ، ما يحدثه النضج الاجتماعى الذى يتم بعد مكابدتها للأطوار التى يستدعيها الاجتماع فى أدواره المقررة فى قرون عديدة .

فهذه الجماعة من مهاجرى مكة ، ومؤمنى قبيلتى الأوس والخزرج اللتين ألف بين آحادهما دين لم يكن للعرب فى وثنيتهم العتيقة ، وتقاليدهم الموروثة ، عهد بمثله ، كانت بحاجة لأجل أن تحيا حياة اجتماعية أن تتأثر بعوامل الاجتماع ، وأن تخضع لأفاعيلها ، ولا يكون ذلك إلا إذا وُجدت تلك العوامل واستعد الآحاد للتأثر بها ؛ وهى لا توجد بالصناعة ، وإن أمكن إيجاد بعضها فيتعذر إيجاد بعضها الآخر ، لأنها تتعلق بالبيئة الطبيعية ، وبقابلية الآحاد للتطور ، وبالاحوال الاقتصادية ، وبالجماعات المجاورة ، وكل هذه الشئون ليس فى اليد إيجادها .

أما مجرد العقيدة الدينية فلا تـكفى فى تـكوين وحدة اجتماعية ، لأن العقيدة عمل قلبى لا يتوقف على الاندماج فى جماعة . وقـد عاش المسيحيون بعـد عيسى عليه السلام نحو ثلاثة قرون لا تجمعهم جامعة ، متفرقين فى بلاد متباعدة ، وبقى اليهود أكثر من ألفى سنة مشتتين فى الأرض ليس لهم دولة . فـكان لا بد لأجـل قيام دولة إسلامية من توافر عناصر الاجتماع فى الطائفة التى اتخذته دينا لها ، ومن خضوعها لأفاعيلها آمادا طويلة .

فاذا كان على محمد صلى الله عليه وسلم ، لأجل أن يصل الى تأليف جماعة ، أن يوجد العوامل الأدبية والمادية التى تتـكاتف على إيجادها على الأسلوب نفسه الذى تتبعه الطبيعة فى تأليف الجماعات ، فأنى له أن يوجد لها الزمان الـكافى لترسيخ نتائجها فى نفسية الجماعة ، وهو شرط لا بد من توافره فى حياة الجماعات ؟

اللهم إن هذا من المحالات القاطعة ، وهو فى البلاد العربية التى لا يوجد فيها من عوامل الاجتماع إلا ما يكفى لتوليد القبائل ، يعتبر مما لا يجوز أن يفكر فيه إنسان ، وكيف يجوز التفكير فيه والطبيعة نفسها عجزت عن إحداثه ، فبقيت الجماعات العربية على الحالة القبيلية من يوم وُجدت الى مبعث النبى صلى الله عليه وسلم ؛ لا لنقص فى قواها المعنوية ، ولكن لعدم توافر عوامل تآلفها . فانتداب محمد صلى الله عليه وسلم للإتيان بمحال فى تاريخ البشر ، أمر لم يقدم عليه فرد من أفراده ، ولم يطف فى رأس عبقرى من عباقرته من يوم وُجد العالم الى يومنا هذا .

لا جرم أن الانتداب لمثل هذا العمل يعتبر غريبا الى أبعد حدود الغرابة ، ولكن غرابته وخروجه عن دائرة الأمور العادية لا يجوز أن يثنينا عن النظر فى الوسائل التى تذرع بها محمد صلى الله عليه وسلم ، تحت إرشاد الوحى ، للوصول الى هذه الغاية البعيدة .

أول ما وجّه النبى همته اليه ، أن جعل للطائفة التى اتبعته غاية سامية تسعى للوصول إليها ، لأن كل جماعة لا يكون لها غاية ، تركد حيث هى ، وتكتفى من الحياة بما يحفظ وجودها الشخصى وكيانها القومى ، وقد تلبث على هذا عشرات القرون حتى تبيد أو تفنى فى جماعات أقوى منها . فكانت الغاية التى عينها النبى للجماعة التى يرأسها أن تكون نواة الدين الذى شُرع لاصلاح جميع الأديان ، وأن تُحمى الدعوة إليه ضد كل من يحاول أن يحول بينها وبين الانتشار .

وهذا لا يكفى فى تكوين أمة ، ولا فى إقامة دولة ، فالأمة لا يتحقق لها وجود إلا بتوافر عدد أفرادها ، وشغلهم حيزا معروف الحدود بين الأمم المجاورة لها ، والدولة فى حاجة الى مقومات اقتصادية وأدبية وسياسية . وهل يمكن الوصول الى هذا كله إلا بانشاء العلاقات بينها وبين الجماعات القريبة منها والبعيدة عنها ؟

ولكن هل هذه العلاقات مما يمكن إيجاده من غير طريق العوامل التى توجبه ؟

هذه العوامل تقتضى فيما تقتضيه التبادل الاقتصادى ، والتبادل الثقافى ، وكل هذا يقتضى الإنتاج الزراعى والصناعى ، والإنتاج الفكرى . فهل كانت يثرب بالبيئة التى تولد كل هذه العوامل ؟

هذا هو الأسلوب الطبيعى فى توليد الأمم وإقامة الدول ، ولو صادفها محمد فى البيئة التى ظهر فيها لما كان فى عمله إعجاز ، ولكان أمكن الخصم تعليل نجاحه بالعلل الاجتماعية ولو من طريق التلاعب بالألفاظ ، غير مقدر كم كان يقتضى تنبيه هذه العوامل من الآماد المتعاقبة فى شروط ملائمة ؟ ولكن النبى لم ينتقل الى الرفيق الأعلى بعد إحدى عشرة سنة من يوم انتقاله الى يثرب حتى كانت للاسلام أمة ، وكانت له دولة .

إن ميزة الأوامر الإلهية أن تنفذ ولو قامت دونها جميع الحوائل الطبيعية والانسانية .

وقد أراد الله أن تكون للإسلام أمة ودولة قبل أن يفارق رسوله العالم الأرضى فكانتا ، كانتا فتيتين قويتين حاصلتين على جميع عوامل النماء والتطور ، نقلتا العالم كله من حال الى حال آخر ، لا صورتين وهميتين لم تلبثا أن انحلتا بعد وفاة موجدهما ولم تتركا أثرا .

فإذا كان فى تكوينهما على خلاف السنن المعروفة إعجاز يقف العلم الاجتماعى أمامه حائرا ، فان فى بقائهما واستمرارهما وعظمة آثارهما إعجازاً ثانيا ليس بأقل من الأول .

يستخف بعض الناس بتأليف الأمم ، فيخيل إليهم أن الآحاد كأحجار البناء يضعها البنَّاء حيث أراد ، لاحماً بعضها ببعض بالمِلاَط ، فيشيد منها قصراً على النظام الذى وضعه من قبل . هـذا النظر يدل على فاقة علمية توجب المرحمة . والحقيقة أن الآحاد الذين تتألف منهم الأمم كائنات عاقلة لا يمكن تشبيهها بالأحجار ، والمِساك الذى يجمع بينها مؤلف من رُبُط معنوية تشترك فى تكوينها ضرورات طبيعية ، ومقتضيات بيئية ، وحاجات عقلية وروحية ، فإذا لم تنتظم جميع هـذه العوامل مئات الألوف من الآحاد فى وحدة لا انفصام لها ، اعترى هذه الفئام التفكك ، فلم يتم ترابطها بحيث إذا تحركت تحرك جميع آحادها اضطرارا لا اختيارا فى آن واحد ، كما يتحرك الجسم فتنفعل جميع أعضائه فى اتجاه واحد ، وعلى غرار واحد ، لا يسأل عضو عضوا لِمَ تحَرك .

فتخيل كيف تصل أمة مؤلفة من عدة ملايين أو عشرات الملايين الى هـذا الضرب من التكافل مع تخالف آحادها فى أخلاقهم وعقلياتهم ونفسياتهم وآمالهم وأهوائهم ؟ فاذا رأيت أمما قائمة ولم يصادف قادتها أثرا من الحوائل ، فما ذلك إلا لأن هذه الأمم كانت من عمل الطبيعة لا من عمل القادة . والعمل الطبيعى يجرى على أدوار متعاقبة ، فى آماد طويلة ، تنفقها الطبيعة فى التوفيق بين هذه المتناقضات ، لا بصبها فى قالب واحد ، فهذا محال ، ولكن بإخضاعها لنظام تعاونى يحول تصادمها الضار الى تكافل مفيد للجماعة كما هو مشاهد فى كل جماعة قائمة .

فهذا العمل الطبيعى البطىء لا يمكن محاكاته بالصناعة ، بمعنى أنه لا يمكن إقامة أمة من مجموعة آحاد من بيئات مختلفة ، بل لا يمكن تحويل الجماعات الصغيرة القائمة على مبدأ التناحر الى وحدة اجتماعية يسودها التكافل والترافد من غير الطريق التدريجى التى تسلكها الطبيعة فى إيجادها بالعوامل الخاصة بها ، وهى لا توجد بالصناعة كما قدمنا . وهذا الأمر من الوضوح بحيث أن الله نبه العقول الى إعجازه ، ونوه عنه بعبارة تشف عن عظم شأنه ، فقال تعالى : « هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين وألف بين قلوبهم ، لو أنفقت ما فى الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم ، إنه عزيز حكيم » .

تأمل فى قوله تعالى : « لو أنفقت ما فى الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم » ، تجد فيه إشارة صريحة يدركها أولو العلم اليوم على النحو الذى ذكرناه هنا . فان الذى يؤلف القلوب ، ويوحد

بين مطالبها ، ويوجهها وجهة واحدة ، هى العوامل الطبيعية الموجبة لذلك ، لا المغريات المادية التى تزول آثارها بزوال تأثيرها .

بعد أن أصبح أمر الإعجاز فى عمل النبى صلى الله عليه وسلم واضحا كل الوضوح ، يؤيده الكتاب الكريم نفسه ، ويؤيده العلم ، وجب علينا أن نتحسس من ذلك العامل الخفى الذى قام مقام جميع عوامل الاجتماع والتآلف الى أبعد حد ، فتأثرت الجماعة بجميع مقومات الاجتماع على أوسع وأكمل وجه ، دون أن تدخل فى الأدوار التى تحصلها للنفس . ودخولها فى تلك الأدوار فى سنين معدودة لا يكفى لإيجابها ، فلا بد من مرور آماد طويلة عليها ، وتكرر حدوثها لتتهيأ النفس لقبول آثارها ، والقيام على آساسها (١) . فأى حدث فى العالم أغرب من قيام أمة متعاقدة الخناصر ، محكمة الأواصر ، متكافلة الطبقات ، منزهة من جميع عيوب الأمم السابقة والمعاصرة لها ، ومن أشيعها غشمرة المتغلب ، وسيطرة المتحكم ، وعُجب القوى المنتصر ، وبغى الجاهل المقتدر ؟

هذا غريب حقا ، وهو من أكبر دلائل نبوة القائم به محمد صلى الله عليه وسلم . فاذا ألانت النبوة الحديد ، وفجرت الماء من الصياخيد (٢) ، وأحيت الموتى بعد أن اخترمتهم المنون ، فإن إلانة النفوس الجاهلية ، وتفجير ماء الحياة الروحية ، وبث أصول البطولة الصحيحة فى القلوب ، أشد إعجازا ، وأبعد أثرا من هذه الآيات الجزئية . فهذه الآيات تَشكك فيها الباحثون ، وأنكرها الماديون ، ولكن الآيات المحمدية لا يمكن إنكارها ، فهى ماثلة أمام الأعين ، منوها فى تاريخ الأجيال السابقة ، تشهد بأن روحا ربانيا حل بهذه الجماعة ، فدفعها لإحداث أكبر الأحداث العالمية ، وتنبيه الأمم كافة من سباتها الذى كان طال عليها الأمد فيه .

ذلك العامل الخفى الذى أحفينا فى البحث عنه ، هو (الإيمان) الذى نفثه محمد صلى الله عليه وسلم فى رُوع جماعته (٣) ، فجعلهم يتلقفون ما يلقى إليهم بلهف عظيم ، فتتكيف به نفسياتهم ، ويصبح حالا لها كأنها ولدت مفطورة عليه .

هذا التعليل قد يجد فيه بعض الخصوم فرجة يتقحمون منها للغض من درجة إعجازه ، فيقولون : ما دامت المسألة استحالت الى الايمان ، فقد أمكن تعليلها بعلة طبيعية ، لأن الايمان يفعل بالنفوس ما تفعله الوراثات المتأصلة ، فيسوقها الى الأغراض التى تُوَجَّه إليها من طريق الانسياق الذاتى ، مضطرة غير مختارة ، فلا عجب أن يطبعها المستولى عليها من هذه الناحية على أى الصور شاء ، وأن يدفعها الى أى الوجهات أراد .

---

(١) آساس جمع أسس (بفتحتين) وهى بمعنى الاس (مثلثة) والاساس . وجمع الاس إساس (بكسر الاول) . وجمع الاساس أسس (بضمتين) . (٢) الصخرة الصيخود هى التى لا تعمل فيها المعاول . (٣) الروع (بضم الراء) : القلب والذهن والعقل . والروع (بفتحها) : الفزع .

نقول : مهلا مهلا ، فان فى طى هذه المسألة أمرا يعتبر فى أرفع درجات الاعجاز ، ألا وهو إيجاد هذا (الايمان) ؛ فعلى الخصم قبل أن يمضى قدماً فى التعليل به ، أن يفسر لنا كيف أمكن للنبى أن يبثه فى قلوب ألوف مؤلفة من الناس على حال يستولى معها على جميع مشاعرهم ، فيسقط كل ما ورثوه من عقائدهم ، وما جمدوا عليه من وساوسهم ، وأن ينفرد بالسلطان على قلوبهم فيُخضعها لكل ما يقدمه إليهم من مختلف التعاليم والوصايا خضوعا مطلقا ، بحيث يصبح منقوشا فى سويداء قلوبهم ؛ ولا تنس أن هذه التعاليم والوصايا لا تشايع ما كانوا عليه من ناحية من النواحى ، فلا يمكن أن يقال هنا إنهم أخذوا بها لأنها ناسبت ما كانوا عليه ، ولاءمت ما توارثوه من قبل ، ولكنها كانت تناقض ما كانوا قائمين عليه من كل وجه :

كانوا معددين للآلهة ، فجاءهم بالتوحيد .

كانوا يخضعون لحكم القوة ، فأخضعهم لسلطان الحق .

كانوا يأخذون بالتقليد ، فخولهم الى حكم العقل .

كانوا يحكمون بالعادات ، فجعلهم يحكمون بالقانون .

كانوا قانعين بما كانوا عليه ، فأهاب بهم لطلب الأحسن .

كانوا واقفين مع عالم المادة ، فحفزهم لتنور عالم الروح .

كانوا مكتفين بالأمر الواقع ، فدفعهم لتحرى المثل الأعلى .

كانوا يأخذون بالظنون ، فأمرهم أن لا يأخذوا إلا بالدليل .

كانوا راضين بالجهل ، فحضهم على طلب العلم .

كانوا يحرصون على الامتيازات ، فقرر لهم مبدأ المساواة .

فالايمان الذى يستولى على النفسية ، ويجردها من كل ما لابسها من الأصول التى صارت بتوالى توارثها فى الآماد المتتالية ملكات راسخة فيها ، ويحل محلها أصولا تناقضها من كل وجه ، ويجعل منها كيانا جديدا لشخصيتها ، لا يجوز أن ننظر اليه نظرنا الى الأمور العادية ، فنعلل به ما نريد أن نتعقله ، ونمضى غير مكترثين له . لأن مثل هذا (الايمان) الذى يقلب كيان النفس ويحولها من حال الى حال ، لا يعقل أن يكون ثمرة دعوة كلامية ، وإلا أمكن إصلاح أية جماعة بإيجاد إيمان لها من طريق الدعوة ، فلا يكون على الأرض أمة منحرفة عن الصراط السوى فى أية بقعة من بقاع الأرض ، وتصبح مهمة المصلحين من أيسر المهام الاجتماعية ؛ وما نشاهده فى الواقع يخالف ذلك كل المخالفة ، فقد بح صوت الهداة والمرشدين فى كل زمان ومكان من الدعوة الى الفضائل ، والتنفير من الرذائل ، فلم يزدد الناس إلا مضيا فيما هم فيه ، كأن كل هذه الإهابات بهم لا تعنيهم .

يقول المعترضون : نعم لأن المدعوين لا (إيمان) لهم بهؤلاء الدعاة .

نقول : هذا حق ، ولكنكم أرجعتمونا من طريق الدور الى مسألتنا الأولى وهى الإيمان . فما الذى قام به محمد غير مجرد الدعوة فأوجد لنفسه فى القلوب هذا الإيمان الراسخ الذى تمكن به من صب نفسية أمة برمتها فى قالب جديد لم تكن تعرفه ، ولا تسمع بمثله من قبل ؟

قلنا مجرد الدعوة ، لأنكم تنكرون المعجزات ، فعليكم أن تفسروا لنا كيف وصل محمد الى بث (الإيمان) بنبوته فى هذه النفوس كلها ، وتوصل بذلك الى التحكم فى تكييفها ، حتى حولها من حال الى حال آخر ، صلحت معه لأن تصل الى زعامة العالم كله فى سنين معدودة ؟

المسألة خطيرة ، خطيرة الى أبعد حدود اليأس . وهى فى هذا المأزق تصبح أقرب الى الحل منها وهى على بساط البحث . فإن الدليل على صحة النبوة هو صحة النبوة نفسها ، والفارق بين صحيحها وكاذبها ليس من الدقة بحيث لا تدركه إلا العقول القوية . فالنبوة الكاذبة فرية خسيسة لا تحل إلا بقلوب خوت من كل خير ، ونفوس تجردت من كل فضيلة ، وصارت مباءة لكل دناءة ورجس . والذى يستسيغ الكذب على الله بادعاء أن بينه وبينه اتصالا ، لا يعقل أن يكون إلا فى الدرك الأسفل من فساد الأخلاق ؛ ويستحيل أن يتولد من هذه النفس المنحلة عمل صالح تتألف منه أمة كريمة ، ذات أصول قويمة ، تتأدى فى سنين قليلة الى سيادة الأرض ، ناشرة حولها سمعة زكية ، وصيتا مُدَوِّيا ، اعتبرت منقذة للعالم مما كان يرسف فيه من قيود العبودية ، ويرزح تحته من آصار الجاهلية .

النبوة الحقة تثمر ثمراتها فى الجماعات التى تحل بها ، دون ان تستطيع أية قوة صدها عن بلوغ مداها ، كما قال تعالى : « كتب الله لأغلبن أنا ورسلى إن الله قوى عزيز » .

نعم إن النبوات تلاقى عقبات كأداء فى طريقها ، ولكنها تتغلب عليها فى النهاية كما قال الله تعالى : « ولقد كُذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ، ولا مبدل لكلمات الله ، ولقد جاءك من نبأ المرسلين » .

الخلاصة :

الخلاصة أن الله قد أمد جماعة المسلمين الأولين من طريق الاعجاز (بإيمان) راسخ بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، بعد أن طهر نفوسهم من جميع أدران الجاهلية ، ونقش فى صميم روعهم من الأصول الأدبية ، والمبادئ الاجتماعية ، والمثل العليا ، ما لاسبيل إليه عادة إلا بعد تطورات متعاقبة فى آماد طويلة ، ليتم بواسطة هذه الأمة ما سبق فى علمه من الانقلابات العالمية التى كان العالم فى أشد الحاجة إليها . بقى علينا الآن أن ننظر كيف تقلبت فى الأدوار التى سيقت إليها تحت هداية الوحى ، وقوامة خاتم المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم ، والله ولى التوفيق ؟

محمد فريد وجدى



سورة الشمس وضحاها

بسم الله الرحمن الرحيم

« والشَّمسِ وضُحاها ، والقمرِ إذا تَلاَهَا ، والنَّهارِ إذا جَلاَّها ، واللَّيل إذا يَغْشَاها » :

قلنا فيما سبق : إن القرآن له عناية كبرى بلفت الأنظار الى الآيات الكونية وما فيها من العبر والدلائل على عظمة الله ومزيد حكمته ، فتراه يقول : «ومن آياته الليلُ والنهارُ والشمسُ والقمرُ» ، ويقول : « وهو الذى جعلَ لكم الليلَ لباسا والنومَ سُباتاً ، وجعل النهارَ نُشُوراً » ، ويقول : « وهو الذى خلق الليلَ والنهارَ والشمسَ والقمرَ ، كلٌّ فى فَلَكٍ يَسبَحون » ، ويقول : « اللهُ الذى جعل لكم الليلَ لتسكنوا فيه والنهارَ مُبْصِراً » . وهذا كثير جداً فى القرآن الشريف . يريد بذلك تعالى أن يوقظ النفوس من رقدتها ، وينبه العقول من غفلتها ، الى أن عظمة الله أظهر من الشمس ، وهو سبحانه وتعالى أدنى الى الانسان من النفس .

ولنذكر لك بعض ما قال العلماء فى هذا المقام ، نحاول بذلك تثبيت إيمانك ، وتتميم إيقانك ، فنقول :

انظر الى هاتين الآيتين « الليل والنهار » وما تضمنتاه من العبر والدلالات على ربوبية الله وحكمته ، كيف جعل الليل سكناً ولباساً يغشى العالم ، فتسكن فيه الحركات ، وتأوى إليه الحيوانات الى بيوتها ، والطير الى أوكارها ، لتستجم فيه ، وتستريح من كد السعى والتعب ، حتى إذا أخذت النفوس راحتها وسباتها ، واستعدت الى معايشها وتصرفها ، جاء فالق الإصباح سبحانه وتعالى بالنهار ، يقدم جيشه بشير الصباح ، فهزم تلك الظلمة ومزقها تمزيقا ، وكشفها عن العالم فإذا هم مبصرون ، فانتشر الحيوان ، وتصرف الانسان فى معاشه ومصالحه ، وخرجت الطيور من أوكارها . فياله من تدبير حكيم ، وعمل عظيم ! ولكن تكرره كل يوم أسقط وقعه فى القلوب فلم تنفعل به النفوس، لأن كل ما كثرت مشاهدته ضعف التأثر به والالتفات اليه ، فسبحان من لا ضعف فى قدرته ، ولا قصور فى حكمته ، ولكن الله يضل من يشاء ويهدى

من يشاء . بل نقول : إن من آياته الباهرة أن يُعمى الله عن هذه الآيات الواضحة البينة من شاء من خلقه . « ومن العجب أن يقف الانسان فى الماء الى حلقه ثم ينكر وجود الماء ويستغيث من العطش » !

ثم تأمل بعد ذلك – رعاك الله – حال الشمس والقمر فى طلوعهما وغروبهما لإقامة دولتى الليل والنهار ؛ ولولا طلوعهما وغروبهما لبطل أمر العالم ، وكيف كان الناس يسعون فى معايشهم ويتصرفون فى أمورهم والدنيا مظلمة عليهم ؛ وكيف كانوا يتهنون بالعيش مع فقد النور ؟

ثم تأمل الحكمة فى غروبهما ، فانه لولا غروبهما لم يكن للناس هدوء ولا قرار مع فرط الحاجة الى النوم ، وجموم الحواس . ومن البين أنه لولا الغروب لكانت الأرض تحمى بدوام شروق الشمس واتصال طلوعها حتى يحترق كل ما عليها من حيوان ونبات ، فصارت تطلع وقتا بمنزلة السراج يرفع لأهل البيت ليقضوا حوائجهم ، ثم تغيب عنهم كما ينطفئ السراج عندما تذهب الحاجة الى نوره ليقروا ويهدءوا ، وصار ضياء النهار مع ظلام الليل ، وحر هذا مع برد هذا مع تضادهما ، متعاونين متظاهرين ، بهما تمام مصالح العالم . وقد أشار تعالى الى هذا المعنى منبها عليه ، لافتا النظر إليه ، كما سبق لك بمثل قوله : « قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سَرْمَداً الى يوم القيامة مَن إله غير الله يأتيكم بضياء ، أفلا تسمعون . قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمداً الى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه ، أفلا تبصرون » . وقال فى السورة الأخرى : « تبارك الذى جعل فى السماء بروجاً ، وجعل فيها سراجاً وقمراً منيراً . وهو الذى جعل الليل والنهار خِلْفة لمن أراد أن يذّكر أو أراد شكوراً » . فبين سبحانه وتعالى كون كل واحد منهما يخلف الآخر ، بل يغشى أحدهما صاحبه فيطلبه حثيثا حتى يزيله عن سلطانه أيضا .

وإن شئت بعد ذلك فتأمل أحوال هذه الشمس فى انخفاضها وارتفاعها لإقامة الفصول الأربعة ، وما فيها من المصالح والحكم ، إذ لو كان الزمان كله فصلا واحدا لفاتت مصالح الفصول الباقية فيه ، فلو كان صيفا كله لفاتت منافع الشتاء ، ولو كان شتاء لفاتت منافع الصيف ؛ وكذلك لو كان ربيعا كله أو خريفاً كله . ففى الشتاء تختبىء الحرارة فى بطن الأرض وأجواف الأشياء ، فتتولد مواد الثمار وغيرها ، وتبرد الظواهر ، ويستكثف الهواء ، ويكثر السحاب والمطر ، والثلج والبرد ، وبذلك حياة الأرض وأهلها ، واشتداد أبدان الحيوان وقوتها ، وتزايد القوى الطبيعية ، واستخلاف ما حلّلته حرارة الصيف من الأبدان . وفى الربيع تتحرك الطبائع وتظهر المواد المتولدة فى الشتاء ، فيظهر النّور والزهر بالشجر ، ويتحرك الحيوان للتناسل . وفى الصيف يحتد الهواء ويسخن جداً ، فتنضج الثمار ، وتنحل فضلات الأبدان والأخلاط التى انعقدت فى الشتاء ، وتغيب البرودة وتهرب الى الأجواف ، ولهذا

تبرد العيون والآبار ، ولا تهضم المعدة الطعام التى كانت تهضمه فى الشتاء من الأطعمة الغليظة لأنها كانت تهضمها بالحرارة التى سكنت فى البطون ؛ فلما جاء الصيف خرجت الحرارة الى ظاهر الجسد وغارت البرودة فيه . فإذا جاء الخريف اعتدل الزمان ، وصفا الهواء وبرد ، فانكسر ذلك السموم ، وجعله الله بحكمته برزخاً بين سموم الصيف وبرد الشتاء ، لئلا تنتقل الحيوانات وهلة واحدة من الحر الشديد الى البرد الشديد فيعظم أذاه ؛ أما إذا انتقل إليه بتدريج وترتيب لم يصعب عليه ، فإنه عند كل جزء يستعد لقبول ما هو أشد منه حتى تأتى شدة البرد بعد استعداد وقبول . وكذلك الربيع برزخ بين الشتاء والصيف ، ينتقل فيه الحيوان من برد هذا الى حر هذا بتدريج وترتيب ، فتبارك الله رب العالمين ، وأحسن الخالقين !

وتأمل حكمته تعالى فى سير الشمس وما فيه من المصالح والحكم ، فأنه لو كانت تطلع فى موضع من السماء فتقف فيه ولا تعدوه لما وصل شعاعها الى كثير من الجهات ، لأن ظل أحد جوانب كرة الأرض يحجبها عن الجانب الآخر ، ويكون الليل دائماً سرمدا على من لم تطلع عليه ، والنهار سرمداً على من هى طالعة عليهم ، فيفسد هؤلاء وهؤلاء . فاقتضت الحكمة الإلهية ، والعناية الربانية ، أن قدر طلوعها من أول النهار من المشرق ، فتشرق على ما قابلها من الأفق الغربى ، ثم لا تزال تدور وتغشى جهة بعد جهة حتى تنتهى الى المغرب فتشرق على ما كان مستورا عنها فى أول النهار ، فيختلف عندهم الليل والنهار فتنتظم مصالحهم .

ولنقف هنا اليوم ، وموعدنا العدد الآتى إن شاء الله ، والمقام مقام إطناب ، سالكين فى ذلك مسلك القرآن ، منشدين قول القائل :

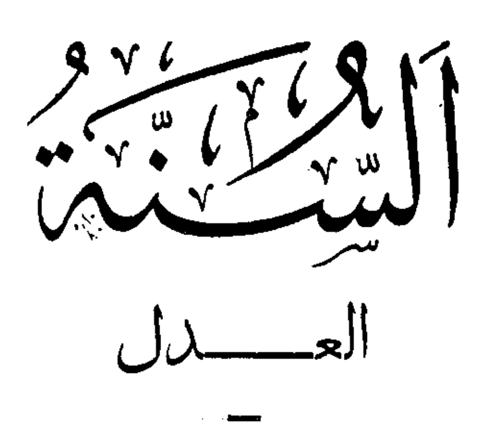
وحدثتنى يا سعد عنهم فزدتنى شجونا فزدنى من حديثك يا سعد
هواهم هوى لا يعرف القلب غيره فليس له قبل وليس له بعد

يوسف الدجوى
عضو جماعة كبار العلماء

هل يفسد الزمان ؟

اعتاد الناس إذا رأوا شحا مطاعا ، وهوى متبعا ، وفاحشة فاشية ، أن يقولوا : قد فسد الزمان . والزمان لا يفسد ولكن يفسد أهله ، كما هو ظاهر لا يحتاج الى دليل ، فاذا تطلبوا الرشد فليصلحوا أنفسهم وإلا حقت عليهم الكلمة التى حقت على الأمم البائدة . وقد أدرك هذه الحقيقة الأصمعى قبل أكثر من ألف سنة فقال :

إن الجديدين فى طول اختلافهما لا يفسدان ولكن يفسد الناس



العـــدل

عن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ما مِن أميرِ عَشرةٍ إلا يُؤتَى به يومَ القيامةِ مَغلولاً لا يَفُكّه إلا العَدلُ » . رواه أحمد بإسناد جيد رجاله رجال الصحيح . ذكره الحافظ المنذرى .

يتعلق بشرح هذا الحديث أمور : (١) بيان معنى الحديث إجمالا . (٢) بيان معنى العدل . (٣) آثار العدل بين الناس ، وفضل من عدل .

(١) الغرض من هذا الحديث تحذير الرؤساء والأمراء من المظالم والاستهانة بالحقوق المنوطة بهم ، وإلا كانوا من الظالمين الذين يستحقون العقوبات التى ذكرناها فى المقال الذى قبل هذا .

وقوله صلى الله عليه وسلم : « ما من أمير عشرة الخ » ليس الغرض منه تحديد هذا العدد كما هو معروف من الأحاديث الأخرى ؛ فقد وردت أحاديث صحيحة تدل على وجوب العدل مع كل مرءوس ولو كان واحدا : قال صلى الله عليه وسلم : « كلكم راع ومسئول عن رعيته : الإمام راع ومسئول عن رعيته ، والرجل راع فى أهله ومسئول عن رعيته ، والمرأة راعية فى بيتها ومسئولة عن رعيتها ، والخادم راع فى مال سيده ومسئول عن رعينه ، وكلكم راع ومسئول عن رعيته » . رواه البخارى ومسلم . فهذا الحديث صريح فى أن كل فرد من الأفراد مطالب بتحقيق العدل بنسبة ما يكلف به من الأعمال ، سواء كان مع نفسه أو مع غيره ولو كان واحدا . وسيأتى فى تعريف معنى العدل بيان هذا . وإنما اقتصر الحديث الذى معنا على ذكر العشرة لأن هذا العدد كان أقل عدد يرأسه أمير غالبا عند العرب . وقد ورد ما يدل على ذلك فى الأحاديث الصحيحة : فمن ذلك ما روى البخارى معناه فى حديث طعام أبى بكر الذى كان أعده لبعض فقراء أهل الصفة فأكلوا منه ولم ينقص شيئا ، فأخبر بذلك النبى صلى الله عليه وسلم وكان عنده وفود من قبائل العرب ، فأمر أبا بكر بإحضاره وقدّمه لهؤلاء الوفود وأجلس عليه كل عشرة مع رئيسهم ، فأكلوا جميعا حتى شبعوا . وهكذا ، فقد كان عدد العشرة هو أقل عدد يستحق أن يكون له رئيس .

أما قوله : « إلا يؤتى به يوم القيامة مغلولا » فمعناه أنه يؤتى به وهو مقيد بقيد من حديد فى عنقه أو فى يده . يقال : غله غُلا بالضم ، إذا وضع فى رقبته أو فى يده غُلاً من حديد .

وقد يقال إن هـذا بظاهره ينافى الأحاديث التى تدل على أن الإمام العادل يكون محوطا بعناية الله تعالى ومشمولا برحمته من أول الأمر ، فقد ورد أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : سبعة يظلهم الله يوم لا ظل إلا ظله ، وأول هؤلاء السبعة الامام العادل ؛ فكيف يتفق هذا مع ظاهر هذا الحديث الذى يفيد أن كل أمير عشرة يؤتى به مغلول اليدين والعنق ، وفى ذلك من الإهانة والتعذيب ما لا يخفى ؟

والجواب : أن معنى الحديث تحـذير الرؤساء والأمراء من الظلم ، وحثهم على العـدل . فالذى يؤتى به مغلولا إنما هم الظالمون .

ومعنى « لا يفكه إلا العدل » : أن العادلين آمنون من هذه الإهانة ، بل هم منعمون من أول أمرهم لأنهم متصفون بالعدل ، وما دام العدل ملازما لهم فهم منفكون عن كل ما يصيب الظالمين من جزاء . فالعدل وقاية لهم من كل ما يمس الظالمين من عقاب ، ووسيلة للنعيم الخالد وحسن الجزاء .

أما معنى العدل فهو معروف بين الناس ، وهو ضد الجور والظلم ، ولـكن علماء الأخلاق بحثوا فى معنى العدل بحثا دقيقا ، فقالوا : إنه صفة من صفات النفس الخلقية الفاضلة التى يترتب عليها أداء الحقوق المشروعة لمستحقيها كاملة ، بحيث لا يظلم أحد فى شىء من الأشياء التى أقرها له الدين وجعلها مقصورة عليه . وهـذه الصفة الخلقية الفاضلة تظهر آثارها فى ثلاث قوى نفسية : وهى القوة الشهوية ، والقوة الغضبية ، والقوة العقلية . ولهذا عرفوا العـدل بأنه التوسط بين طرفى الإفراط والتفريط فى هذه القوى ، فمتى اعتدلت هذه القوى كان صاحبها عادلا . مثال التوسط فى الشهوات هو أن يقف معها عند الحد الذى أمره به الدين والعقل ، فـلا تحمله شهوته على الاعتـداء على أعراض الناس وأموالهم وأنفسهم ، ولا تذهب به الى ما يضره فى خلقه أو دينه أو بدنه ؛ ولا تحمله على ما نهاه عنه الدين من حقـد وحسد وغير ذلك . فمن توسط فى هذه الشهوة سواء كانت شهوة جاه أو مال ، أو منصب أو لذة من اللذات البدنية ، واقتصر على ما هو مشروع منها ، فقد ملك زمام العدل مع نفسه ومع الناس . أما إذا طغت عليه شهوته فحملته على الخروج عما أمره الله به ، وزينت له الاعتداء على أعراض الناس وأموالهم وحقوقهم العامة أو الخاصة ، فقد باء بأقبح الآثام وكان من الظالمين الطاغين . هذا هو نتيجة الافراط فى الشهوات ، ويسمى عند علماء الأخلاق خلاعة أو مجنونا .

وأما الإفراط فى ترك الشهوات الطبيعية التى خلقها الله تعالى لمصالح وحكم ، كاهمال الجسم من الغـذاء الحلال الضرورى والنظافة وغيرهما ، فانه يترتب عليه السقم الذى يحول بين المرء

وبين أداء وظيفته المطلوبة منه للمجتمع الانسانى . ومثل ذلك إهمال شهوة الفرج وإماتتها ، وهى مودعة فى النوع الانسانى لغرض التناسل وتكثير سواد الأمة ، وإعدادها للقيام بما هو مطلوب منها ، الى غير ذلك من المصالح العامة والخاصة التى تقتضيها الشهوات الطبيعية فى الانسان . فمن أفرط فى شهوته كان ظالما ، ومن فرط فيها كان جامدا ، ومن توسط كان عادلا .

ومثال التوسط فى الغضب ، هو أن يضبط نفسه ولا يطيع غضبه فى الخروج عما يقتضيه العقل والدين ، فلا يغضب إلا إذا انتهكت الحرمات العامة أو الخاصة : بأن يتعدى أحد على دينه أو عرضه أو ماله أو نفسه ، أو رأى منكرا من المنكرات التى نهى الله تعالى ورسوله عنها . فالغضب لذلك ممدوح ، ولابد منه لبقاء النوع الانسانى . والتوسط فى الغضب يسمى شجاعة ؛ والشجاعة وسط بين الجبن وبين التهور . ومن كان كذلك فإنه يملك نفسه ويصرفها عن إيذاء الناس وظلمهم ، والتعدى على أموالهم وأعراضهم وأنفسهم ، ويحمله على إعطاء كل ذى حق حقه ، ويدفع عن نفسه وعن دينه وعرضه عدوان الناس ؛ وبذلك ينجو من عار الجبن ، وعدم الغيرة على عرضه وماله ودينه .

أما الإفراط فى الغضب فانه يترتب عليه أسوأ الآثار وأشنعها ، فان الذى يحمله غضبه على الخروج عن الدفاع عن هذه الامور التى أمر الله بصيانتها والدفاع عنها ، يكون ظالما لامحالة ، لأنه لا يبالى بأن يؤذى الناس فى أموالهم وأعراضهم ، بل وفى أنفسهم ، تشفيا وانتقاما بدون مبرر ، وذلك شر وبيل لا يقره الدين ولا العقل ، ولا يرضاه الله ورسوله .

وأما ترك الغضب فانه يترتب عليه الجبن وعدم المبالاة بالتعدى على الأعراض والأنفس والأموال ، وذلك خروج عما يقتضيه العقل والدين .

ومثال التوسط فى القوة العقلية ، هو أن يقف الانسان مع عقله وتفكيره موقف المتدبر للأمور على ما هى عليه ، المتأمل فى أسرار الكون ونظمه وما جاءت به الشرائع الإلهية من حكم واعتقاد . فمن وقف مع عقله هذا الموقف كان متوسطا بين البلادة والغرور . ويشتمل ذلك على ثلاثة أمور : حكمة الاعتقاد ، وحكمة العمل ، وحكمة الأخلاق . فأما حكمة الاعتقاد ، فأولها توحيد الله تعالى وتنزيهه عن كل ما لا يليق به . وهذا متوسط بين رذيلتين : الأولى نفى الألوهية رأسا ، أو اعتقاد إلهين أحدهما معطل كما تقول الثنوية . وأما حكمة العمل فهى أداء الواجبات بلا إفراط أو تفريط ، وهذا متوسط بين ترك العمل رأسا ، والمبالغة فيه ، كما إذا ترك التمتع بما أباحه الله له من حلال طيب . وأما حكمة الأخلاق فهى كالجود المتوسط بين الإسراف والشح .

فهذا إيضاح ما ذكره علماء الأخلاق من الفلاسفة فى تعريف العدل . وقد عرفت أن العدل

معروف بين الناس ؛ وأن كل إنسان يشعر بما يحيق به من ظلم وإن تفاوتت مدارك الناس فى تقدير الظلم والعدل . فالرئيس الذى يتصرف فى دماء الناس وأموالهم وأعراضهم وحقوقهم العامة والخاصة ، لا يجهل معنى العدل والظلم ، وليس فى حاجة الى معرفة هذه الدقائق . وإذا سألته لماذا يظلم هذا لا يعدم مبررا يبرر به ظلمه . ولكن الواقع أن العدل والظلم لا يخفيان على أحد ، وأن الرئيس العادل أو الظالم لا يخفى أمرهما وما ربك بغافل عما يعمل الظالمون .

(٣) أما آثار العدل بين الناس ، فهى سعادة المجتمع ، وصلاح أفراده فى كل شأن من شئونهم . فمتى عدل الرئيس القائم على مصالح جماعة من الناس ، وحارب العوامل التى تحول بينه وبين إقامة العدل ، فانه يكون قد ظفر بالسعادة هو ورعيته التى يحوطها بدون نزاع . ولهذا كان قوام الدين الاسلامى فى صدر الاسلام ، على رجاله الذين يقومون بالعدل ويتوخونه فى كل صغيرة وكبيرة . فكان الرئيس منهم ينسى شخصه وولده وأعز شىء عليه فى سبيل إقامة العدل وإعطاء كل ذى حق حقه . ولو شئنا أن نذكر أمثلة لذلك من عدل حكام المسلمين الأولين لطال بنا المقام كثيرا ؛ ولكن لا بأس من أن نورد شيئا من ذلك عسى أن يكون فيه عظة وعبرة للمسلمين الذين ينالون حظا من الرياسة .

فمن ذلك ما روى عن الحسن قال : جىء الى عمر رضى الله عنه بمال فبلغ ذلك حفصة أم المؤمنين ، فجاءت ، فقالت : يا أمير المؤمنين أنشدك حق أقربائك من هذا المال ، وقد أوصى الله بالأقربين . فقال : يابنية : حق أقربائى فى مالى ، وأما هذا فمال المسلمين ؛ غششت أباك ، ونصحت أقرباءك ، قومى ! فقامت والله تجر ذيلها .

ومن ذلك ما روى من أنه رضى الله عنه جمع عماله ، وجمع رءساء القبائل معهم ، ثم قال لهم : إنى والله ما أرسل عمالى إليكم ليضربوا وجوهكم ولا ليأخذوا أموالكم ، ولكن أرسلتهم إليكم ليعلموكم دينكم وسننكم ، ويحفظوا دماءكم وأعراضكم ، ويقسموا بينكم فيئكم ، فمن فُعل معه سوى ذلك فليرفعه الىّ ، فو الذى نفس عمر بيده إذن لأقصنه منه ! فوثب عمرو ابن العاص أحد الأمراء فقال : يا أمير المؤمنين : أفرأيت إن كان رجل من المسلمين على رعيته فأدّب بعض رعيته إنك لمقصه منه ؟ قال : إى والذى نفس عمر بيده إذن لأقصنه منه ! وقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقص من نفسه . ألا لا تضربوا المسلمين فتذلوهم ، ولا تمنعوهم حقوقهم فتكفروهم ، ولا تنزلوهم الغياض فتضيعوهم (الغياض جمع غيضة ، والغيضة مكان يجتمع فيه الماء ثم يقل فينبت فيه الشجر) . وكان رضى الله عنه يباشر أحوال رعيته بنفسه ليقيم بينهم العدل بقدر ما يستطيع . وكان يؤثر رعيته على نفسه وولده عند نزول الشدائد والإحن .

وما نحن بقادرين على أن نذكر فى هذا المقام ما كان عليه عمر رضى الله عنه من عدل

شامل لجميع أفراد الرعية . ولكن كان من آثار هذا العدل أن قامت الدولة الاسلامية فى عهده على أساس ثابت قد وضعه رسول الله صلى الله عليه وسلم من قبل ، فقوى الاسلام فى عهده ، وانهارت الدولتان اللتان كانتا تسودان العالم يومئذ ، وهما الفرس والرومان .

وبالجملة ، فالدين الاسلامى قد أمر المسلمين بإقامة العدل بينهم أمرا صريحا ، وهدد الظالمين تهديدا شديدا ، ولعنهم لعنا كبيرا ، قال تعالى : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان ، وإيتاء ذى القربى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى » . والله يهدى المسلمين الى سواء السبيل ؟

عبد الرحمن الجزيرى

الحزم والعزم

يروى عن بزرجمهر الوزير الفارسى المشهور أنه قال : إن الحازم إذا أشكل عليه الرأى ، بمنزلة من أضل لؤلؤة فجمع ما حول مسقطها من التراب ثم التمسها حتى وجدها ؛ وكذلك الحازم يجمع وجوه الرأى فى الأمر المشكل ثم يضرب بعضها ببعض حتى يخلص رأيه .

وقال شهاب الدين : كن ذا عزيمة فان عزائم الرجال تحرك الأسباب .

وقال شاعر :

إذا كنت ذا رأى فكن ذا عزيمة ۞ فان فساد الرأى أن يترددا

وأضاف إليه بعضهم :

إذا كنت ذا عزم فأنفذه عاجلا ۞ فان فساد العزم أن يتقيدا

ووصف أديب عضد الدولة الوزير فقال : وجه فيه ألف عين ، وفم فيه ألف لسان ، وصدر فيه ألف قلب .

وقال شاعر يمدح ملكا :

عزماته مثل السيوف صوارما ۞ لو لم يكن للصارمات فلول

والعزيمة لا تستحق المدح إلا إذا كانت فى نصرة حق وإلا كانت عدوانا .

بحوث في المسائل الفقهية

تاريخ الفقه الاسلامى فى مصر

— ٦ —

مذهب الإمام الليث :

ترجمنا فى مقالنا السابق لجماعة من علماء القرن الثانى الذين اشتغلوا بالفقه والحديث فى مصر رواية وتأليفا وفتيا ، وكان من هـؤلاء الذين ترجمنا لهم الامام المصرى الأكبر : الليث بن سعد الفهمى .

ونريد اليوم أن نعرض لمذهب هذا الامام الجليل من ناحيتين : ناحية العوامل التى أدت الى ضياعه ، وناحية الطابع الفقهى الذى كان يتميز به .

١ — الأسباب التى أدت الى ضياعه :

لقـد قال الامام الشافعى رضى الله عنه فى الليث كلمة تتضمن أهم الأسباب التى أدت الى ضياع مذهبه : « هو أفقه من مالك إلا أنه ضيّعه أصحابه » . والمتتبع لتاريخ الفقه الاسلامى يعرف أن أصحاب المذاهب لم يضعوا بأنفسهم أسس مذاهبهم بحيث تكون قواعد كلية يترسمها الأتباع ، ويطبقون أحكامها على المسائل الجزئية ، كما يظن كثير من الناس ؛ ولكن الأمر على عكس ذلك ؛ فالأتباع هم الذين وضعوا القواعد وأسسوا الأسس معتمدين على فتاوى إمامهم ومسائله ، فكثير من الاصطلاحات المذهبية يعرفه الأتباع ولا يعرفه الامام نفسه . ومثلهم فى ذلك مثل واضعى النحو والبلاغة : لم يكن العرب الناطقون بالكلام البليغ ، المتفق مع القواعد النحوية والصرفية يعرفون أن هذا فاعل أو أن هذا مفعول ، أو أن هذا مجرد أو مزيد ، أو جامد أو مشتق ، أو أن هذا الفصل لكمال الاتصال ، وهـذا الوصل لكمال الانقطاع ، ولا أن فى هذه العبارة استعارة بالكناية أو استعارة تخييلية ، وهكذا ؛ وإنما هذه أشياء وضعت بعـد استقراء الكلام البليغ فجعلت مقاييس للكلام . فكذلك الأئمة المجتهدون ، كل منهم يفتى برأيه وما يتضح له ملاحظا معنى فى نفسه ، ومَدْركا له ، يصرح به حينا ، ويضمره حينا ؛ فاذا جاء تلاميذه وتابعوه أرجعوا أقواله وآراءه الى قواعد ودوائر يرسمونها للمذهب أخذا من مجموعة أقوال الامام نفسه ، وربما ناقشوه فى بعض هذه الأقوال ، أو عقبوا

عليه فى بعض ما رأى من الآراء ؛ ولا تـكاد تجد مذهبا يخرج فى جملته عن هذه الطريقة ، إذا استثنينا مذهب الامام الشافعى الذى وضع بنفسه رسالته المعروفة ، وضـمّنها كثيرا من قواعد مذهبه .

وبهذا يظهر أن الجانب الأكبر من المسئولية فى ضياع مذهب من المذاهب ، واقع على عاتق الأصحاب والأتباع الذين لم يخدموا المـذهب على الطريقة التى وصفنا ، فأدى ذلك الى بقائه أقوالا مبعثرة ، وآراء متناثرة ، ومسائل مبثوثة فى تضاعيف الـكتب من غير بيان لأصلها الذى بنيت عليه ، ومصدرها الذى أخذت منه ، كما هو الشأن فى مذهب الامام الليث رضى الله عنه .

على أن الليث لم يرزق بأصحاب من الطراز الأول كما رزق أبو حنيفة بصاحبيه : أبى يوسف ومحمد ، وكما رزق مالك بأمثال ابن القاسم وأشهب ، وكما رزق الشافعى بأمثال البويطى والمزنى والربيع .

وأكثر الأئمة دوّنوا لهم كتبا ، فمالك ألّف فى المدينة ، وأبو حنيفة وأصحابه ألفوا فى العراق ، والشافعى ألف بمصر ، والأوزاعى ألف فى الشام ، ولم يؤلف الليث .

وهناك سبب آخر : ذلك أن الحركة الفقهية كانت قائمة على أشـدها فى الحجاز والعراق والشام ، لأنها كانت حواضر الخلفاء ، ومهبط العلم ، ومقصد الراحلين فى طلب العلم ، ومحط أنظار المسلمين ؛ أما مصر فلم تكن الى هـذا العهد بالبلد التى توحد دينها ولغتها ونظامها ، بل لم يكن المسلمون قد انبثوا بعـد فى قراها وأقاليمها ، ولم يكن من أهل البلاد من أقبلوا على هذا العلم يدرسونه ويثبتونه إلا قليلا منهم لا تغنى جهوده المفرقة فى هذا الشأن الخطير ، فلذلك لم يجد الليث من يتعصب له ، ويهتم بفقهه . ولعل السياسة أيضا لعبت فى ذلك دورا ، فان الليث كان رجلا مهيبا مسموع الـكلمة ، يخافه الأمراء ويخشون حسن صلته بالخلفاء ، وكثيرا ما كتب الى الخليفة فى عامل من عماله فصرفه عن عمله ، بل إنه كان قريبا من منصب الإمارة قربا جعل بعض المؤرخين يخطئ فيزعم أنه ولى مصر فعلا حينا من الزمن ، وهـذا القرب ،أو بتعبير أدق ، هذه الجدارة بمنصب الإمارة ، جعلته موضع دسائس ووشايات ، وجعلت أحد خصومه يكتب الى الخليفة أبى جعفر المنصور ليقول له :

لعبد الله عبد الله عنـدى   نصائح حكتها فى السر وحدى
أمـير المؤمنين تلاف مصرا   فأن أميرها ليث بن سعـد

ولسنا نزعم أن ذلك وأمثاله أصاب من نفس الخليفة موقعا ، أو أنتج أثرا ، ولـكننا نقول : إن هذه المنزلة التى تمتع بها الليث فى حياته قد جعلت كثيرا من أهل العلم يُغْضون عن خدمة مذهبه من حيث لا يقصدون ، وجعلت كثيرا من الأمراء والولاة يتخففون من ذكراه بعد موته كما كانوا يتهيبونه فى حياته ، إن لم نقل جعلتهم يصدون عنه ويصرفون عن مذهبه .

وها نحن أولاء نرى الى عهد قريب كيف كانت هيبة الامام محمد عبده وحسن صلته بكبار الرجال سببا فى كثير مما أصابه فى حياته ، ثم سببا فى ضياع كثير من آرائه وأفكاره ؛ ولولا أن الله قيض له تلميذه المخلص المغفور له العلامة السيد رشيد لضاعت أكثر أفكاره بين أعدائه الكارهين وأصدقائه المفرطين ، حسدا أو كسلا .

ولقد كان يحتمل أن تفتر هذه النزعة التى اعترضت مذهب الليث لو كان له أصحاب وتلاميذ مخلصون عنوا به ، واهتموا بمذهبه ، ولو لم تبد فى الأفق طلائع المذاهب الفقهية الجديدة الواردة على مصر من الحجاز والعراق ، والمصريون دائما عشاق ما يرد اليهم ، « لا يطربهم زامرهم » ، ولا يسلبهم شاعرهم ! . . .

هذه هى أهم الأسباب التى ضيعت مذهب الامام الليث ، وتحالفت على كتمانه ، وحرمان العلم والفقه الاسلامى منه .

على أن فى الكتب المطبوعة وغيرها من فقه الامام الليث طائفة صالحة لو عنيت بها هيئة علمية ناشطة لا ستخرجت منها خيرا كثيرا ، ولكننا لم نعرف بعد نظام التعاون العلمى ، وإنشاء الهيئات التى تتخصص لموضوع واحد فتنتج فيه ، وتكتشف له ، كما يفعل علماء الآثار ، مع أن آباءنا الأقدمين هم الذين علموه لأوربا ، وأنشأوه على غير مثال !

ننظر بعد ذلك فى الطابع الذى يمتاز به فقه الامام الليث :

هل كان الليث من رجال الرأى أو من رجال الحديث ؟

كان بين مالك والليث رضى الله عنهما مراسلات ومحاورات ، وكانت هذه المراسلات والمحاورات من أبدع ما عرف فى التاريخ الاسلامى بين عالم وعالم ، جمعت بين حسن الأدب ، وجمال الأسلوب ، ونزاهة النقد ، والهدوء فى المناقشة والجدال ؛ ولو كنا بصدد دراسة أدبية لجلينا هذا الجمال الأدبى ، فلرأى الناس فيه آية من آيات الإبداع ينبغى أن تكون فى عصرنا الحاضر من المثل العليا للعلماء والمتأدبين ، ولكننا نريد أن نستخلص من هذه المناقشات الهادئة المتزنة طريقة الامام الليث فحسب ؛ ومعروف أن العلماء فى ذلك الوقت كانوا بين مدرستين : مدرسة الرأى ، ومدرسة الحديث ، وإن كانت كل مدرسة من هاتين تتشعب الى مدارس تتقارب أحيانا وتتباعد أحيانا ، فمن أى المدرستين كان الليث ؟ أكان من مدرسة الحديث التى كان رجالها يتمسكون بالنصوص التى تروى ولا يحيدون عن ظواهرها ، ويرون ضعيف الحديث خيرا من جيد الرأى ، أم كان من رجال الرأى الذين يقيسون وينظرون ويتشددون فى قبول الأحاديث ؟

لقد كان مالك يأخذ عليه أنه يفتى الناس بأشياء مخالفة لما عليه أهل المدينة ، ويقول له فى أدب وتلطف : « إنه يحق عليه الخوف على نفسه ، لاعتماد من قِبَله على ما يفتيهم به ، ولأن الناس تبع لأهل المدينة التى كانت اليها الهجرة ، وبها نزل القرآن ، وفى أصحابها بث رسول الله صلى الله عليه وسلم علمه ، وفيهم يقول الله عز وجل : « والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم باحسان ، رضى الله عنهم ورضوا عنه ، وأعد لهم جنات تجرى تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ، ذلك الفوز العظيم » .

فيجيبه الليث بمثل هذا الأسلوب الهادئ : « لقد أصبت بالمدى الذى كتبت به من ذلك إن شاء الله تعالى ، ووقع منى بالموقع الذى تحب ، وما أجد أحداً ينسب اليه العلم أكره لشواذ الفتيا ، ولا أشد تفضيلا لعلماء أهل المدينة الذين مضوا ، ولا آخذ لفتياهم فيما اتفقوا عليه منى . . . ولكن كثيرا من أولئك السابقين الأولين خرجوا الى الجهاد فى سبيل الله ابتغاء مرضاة الله فجندوا الأجناد ، واجتمع اليهم الناس فأظهروا بين ظهرانيهم كتاب الله وسنة نبيه ولم يكتموهم شيئا علموه ؛ وكان فى كل جند منهم طائفة يعلمون كتاب الله وسنة نبيه ، ويجتهدون برأيهم فيما لم يفسره لهم القرآن والسنة وتقدمهم عليه أبو بكر وعمر وعثمان الذين اختارهم المسلمون لأنفسهم ، ولم يكن أولئك الثلاثة مضيعين لأجناد المسلمين ولا غافلين عنهم ، بل كانوا يكتبون فى الأمر اليسير لاقامة الدين والحذر من الاختلاف بكتاب الله وسنة نبيه ، فلم يتركوا أمرا فسره القرآن أو عمل به النبى صلى الله عليه وسلم أو ائتمروا فيه بعده إلا علموهموه ، فاذا جاء أمر عمل فيه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بمصر والشام والعراق على عهد أبى بكر وعمر وعثمان ولم يزالوا عليه حتى قبضوا لم يأمرهم بغيره ، فلا نراه يجوز لأجناد المسلمين أن يحدثوا اليوم أمرا لم يعمل به سلفهم من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم والتابعين لهم ، مع أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قد اختلفوا بعد الفتيا فى أشياء كثيرة ، ثم اختلف التابعون ، ثم اختلف الذين كانوا بعدهم . . . وكان يكون من ابن شهاب اختلاف كثير إذا لقيناه ، وإذا كاتبه بعضنا فربما كتب اليه فى الشىء الواحد على فضل علمه ورأيه بثلاثة أنواع ينقض بعضها بعضا ، ولا يشعر بالذى مضى من رأيه فى ذلك ، فهو الذى يدعونى الى ترك ما أنكرت تركى إياه » .

فالليث إذاً من رجال الحديث كمالك ، ولكنه لا يرى ما يراه من الاعتداد بعمل أهل المدينة إلا فيما أجمع عليه المتقدمون منهم ؛ أما فيما عدا ذلك فقد انبث فى الأمصار أصحاب مضت لهم فيها سنة وعمل مستندان من غير شك الى سنة من الرسول وعمل كما استند أهل المدينة ؛ ولئن كان أبو بكر وعمر وعثمان فى المدينة ، ولهم بعرف أهلها وعملهم صلة وعهد ، لقد كانوا أيضا يكتبون الى أجناد المسلمين حتى فى الأمر اليسير حذرا من الاختلاف بكتاب

الله وسنة نبيه ؛ فالأمر إذاً بين أهل المدينة وغيرهم من الأصحاب على سواء ، وكل ما ينبغى على الفقيه ، أن ينقد وينظر ، ويقارن ويتبصر ، ليخرج من معترك الآراء والفتاوى والروايات الى ما هو أشبه بالحق ، وأقرب الى الصواب .

هذا هو المعنى الذى أراد الليث أن يقنع به مالـكا ، رضى الله عنهما . ولعلنا نأتى فى مقالنا الآتى إن شاء الله بشواهد من جزئيات الفقه تشهد له وتدل عليه ؟

محمد محمد المدنى
المدرس بكلية الشريعة

فضيلة الصبر

قال الله تعالى : « إن الله مع الصابرين » ، ولا يعقل أنه يوجد مقام أرفع من هذا المقام .

وقد صدق الحسن البصرى رضى الله عنه حيث قال : وجدت الدنيا والآخرة فى صبر ساعة .

وقال على بن الحسين رضى الله عنهما : احتمال الصبر عند البلية ، أسلم من إطفائها بالمشقة .

نقول : هذا كلام يوهم أن من ابتلى بنازلة وجب عليه أن يصبر عليها ، وأن لا يعمل لدفعها ، وليس هذا مراد على بن الحسين ، وإنما مراده أن يعلم الناس أن الصبر صفة يجب أن يحرص عليها مهما كانت شديدة على النفس ، فقد تكون أخف عليها من التوفر على دفع البلية نفسها . وإنما يطلب الصبر فى المواطن التى لا يجدى فيها غيره ، فالصبر فى وطيس الحرب من الضرورات وإلا انقلب الدفاع الى هزيمة منكرة ، والهزيمة يتبعها الوقوع فى أسر العدو . ويحسن الصبر فى المرض ، لا بترك العلاج ، ولـكن بترك الجزع الذى تكون نتيجته زيادة إعداد البنية لقبول أفاعيل الداء .

فالصبر معناه توطيد الحالة المعنوية للنفس للصمود للبـلايا التى لا مفر منها فى الحياة ، لا استشعار البلادة إزاء كل بلية وتركها تفعل ما تشاء .

صفحات مختارة لأقطاب الفلسفة المعاصرة

الديانة صلاة القلب

مترجمة من كتاب فلسفة الدين للفيلسوف أجوست سباتييه
أستاذ الفلسفة بجامعة باريس (١)

« إننا نستطيع الآن أن نستخلص أصل الدين وأن نضع له تعريفا . فهو صلة وعلاقة معروفة ومرادة ، تنشئها الروح المكروبة بينها وبين القدرة الخفية التي تشعر هي أنها تابعة لها ، وأن مقدورانها تحت مشيئتها . فالصلاة هي الدين في حالة العمل ، أي هي الدين الحق . فالصلاة هي التي تميز الظاهرة الدينية من كل الظواهر التي تشبهها أو تجاورها ، كالشعور بالأدب ، والشعور بالجمال . فاذا كان الدين حاجة عملية للانسان فتوفيتها لا تكون إلا عملية كذلك . فأية نظرية لا تكون كافية في هذا الموطن . لأن الدين لا يكون شيئا يعتد به إذا لم يكن عملا حيويا بواسطته تحاول النفس أن تنجو من الهلاك بالتجائها الى أصلها الذي تنزلت منه . وهذا العمل هو الصلاة . وهي كما أعنيها ليست التلفظ بكلمات ، أو ترديد عبارات ، ولكنها الحركة التي تقوم بها النفس لتضع نفسها في علاقة شخصية ، واتصال مباشر بالقدرة الخفية التي يحس الانسان بوجودها حتى قبل أن يستطيع أن يطلق عليها اسما . فحيث لا توجد هذه الصلاة الباطنية فلا يكون هناك دين . وعلى العكس حيث تنبع هذه الصلاة وتحرك الروح حتى في غيبة أي شكل من الأشكال وأي مذهب مقرر ، فهناك دين حي بمعناه الصحيح . وبناء على هذا فإن إيراد تاريخ الصلاة يعتبر أحسن تاريخ لتولد الدين في النفس الانسانية . وقد رأيت أن هذا التاريخ قد بدأ بالصلاة في أخشن أشكالها ، وانتهى بالصلاة على أكمل حالاتها على شفتي عيسى ، وهي لم تكن تعني إلا الخضوع لله والثقة بارادته الابوية (ينطبق هذا الكلام على قوله تعالى : « ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن ») .

« لهذا التعريف التعييني للدين مزية إصلاح تعريف (شلاير ماكر (٢)) وتكميله . لأنه يوفق بين العنصرين المتضادين اللذين يؤلفان العاطفة الدينية ، وهما العنصر المنفعل والعنصر الفاعل ، أي الشعور بالتبعية والشعور بالحرية . فالصلاة بنبوعها من شعورنا بالفاقة والقهر تخلصنا

(١) راجع ما ترجم من كتابه بالصفحات من ٣٧٦ الى ٣٧٩ ومن ٤٠٤ الى ٤٠٧ من هذا المجلد.

(٢) (Scheiemacher) شلاير ماكر : فيلسوف ألماني مشهور (١٧٦٨ — ١٨٣٤) .

منهما لأنها تقتضى الخضوع والإيمان . فاما الخضوع فهو يجعلنا نسلم بتبعيتنا ونرضى بها ، وأما الايمان فيحول تبعيتنا الى حرية . ومن ناحية أخرى فان هذين العنصرين يقابلان قطبى الحياة الدينية ، لأن الانسان فى كل تقوى حقيقية يسجد أمام القدرة العليا التى تحيط به ، ثم ينهض حاصلا على شعور بالخلاص من الأسر ، وبالوفاق مع الله جل وعز . ولكن (شلاير ماكر) قد أخطأ بعدم اعتماده إلا على ناحية التسليم فحسب . ولم يستطع بعد ذلك أن يخلص من مذهب وحدة الوجود ليصل الى باحة الحرية ، ولا أن يجد أى ارتباط بين الحياة الدينية والحياة الأدبية . وعلى هذا فالدين عمل حر بقدر ما هو شعور بالتبعية . وهذه طبيعة الصلاة وخاصتها فى تحويلها كل شئ عن حالته . فالشعور الساحق الذى كان اعترانى عقب هزيمتى ، انقلب شعورا بالفرح لانتصارى . وكل حالة من الحالات تستحيل الى ضدها ، بحيث إن الانسان المتدين يعيش فى طاعة حرة ، وفى حرية طائعة ، فى وقت واحد .

« فاذا كان الدين فى أكثر الأحيان قد استعمل قوة للقهر ، وأداة للاستعباد ، فقد كان أيضا فى أكثر الأحيان على الأقل أصلا لجميع الحريات . فالقوة التى تستطيع أن تثنينى هى نفسها تستطيع أن تقيمنى ، لأنها تمر بروحى . والإله الذى أعبده سيصير لى فى النهاية الإلهَ الباطنى الذى يدفع عنى كل مخافة ، ويضعنى فوق جميع التهديدات المادية . فتحقيق وجود الله فى روحى على علم منى بذلك ، هو الخلاص المحقق لذاتى ولحياتى .

« لقد عرفت الآن لماذا الديانة الطبيعية تقصر عن أن تكون ديانة . ذلك لأنها تحرم الانسان من الصلاة ، فتدع الله والانسان بعيدين أحدهما عن الآخر ؛ فلا تكون بينهما صلة صميمة ، ولا مخاطبة باطنية ، ولا مبادلة بينهما ، ولا عمل إلهى فى الانسان ، ولا رجوع من الانسان الى الله . وإذا تعمقت فى جوهر هذه الديانة وجدتها جزءا من الفلسفة ، ولدت على عهد سلطان المذهب العقلى (الراسيوناليسم) (١) ، والعمل النقدى ، والتعقل الشخصى ، فهى تجريد فلسفى ، ولم تكن شيئا أكثر من هذا . وأصولها الثلاثة وهى وجود الله ، وخلود الروح ، وأداء الواجب ، ليست إلا مواد ثُفلية لا روح فيها ، بقيت فى قاع البوتقة التى ذابت فيها جميع الديانات المادية . فهذه الديانة التى تزعم أنها طبيعية لم يصادفها أحد فى الطبيعة ، ومعنى هذا أنها لا طبيعية ولا دينية . ولما كانت صناعية وميتة ، فلم تكد تترك شيئا يلحظ فيه أنه من الخصائص الدينية . وقد ظهر فى زمن من الأزمان أن من مزاياها مناعتها ضد النقد العلمى ، ولكن بامتحانها ظهر أنها أقل مقاومة للنقد العلمى من أى دين آخر . والعلة التى أوجدتها هى التى تتولى الآن هدمها ، وأصولها قد أصبحت اليوم أشد تعرضا لخطر الدحض أمام الفكر الراهن ، من أصول الأديان التى كانت ترجو أن تحل محلها .

(١) الراسيوناليسم Rationalisme مذهب فلسفى ينكر الوحى ، ويدعى تعليل كل شيء بالعقل ، وأن الآراء تتولد من العقل مباشرة لا من التجربة .

نتيجة ما تقدم :

« علام كنا نبحث عندما بدأنا هذه الأفكار ؟ كنا نريد من هذا البحث أن نفهم الضرورة التى تولد الدين فى قلب الانسان ، وتطبع ألفاظ الصلاة على شفتيه . يلوح لى أن الضرورة فى تلك الساعة تصير أظهر ما تكون لضميرى ، وعلى حال لا يمكن دفعها . لأنى أشعر أنها تأتى من مصدر أبعد من نفسى ، ومن ثقافة أعلى من ثقافتى ، ومن عادة أرفع من عاداتى وعادات أسلافى . فلأجل اكتشاف أصلها وجب علينا الصعود الى مصدر الحياة العقلية ، والوصول الى ذلك التضاد الأساسى الذى تتألف منه وتنمو فيه ولا يلبث حتى يزول : فالديانة هى الصلاة الباطنية والخلاص . وهى من لوازم الإنسان الى حد أنه لا يستطيع أن يقتلعها من قلبه ، إلا إذا حكم على نفسه أن ينفصل عن نفسه ، وأن يلاشى فى ذاته كل خصائص الانسانية .

« هنا قد يعترض علينا معترض فيقول : إذا كان الأمر كما تقولون فكيف يوجد هذا العدد الكبير من رجال غير متدينين وملحدين ؟

« ونحن نجيبه بقولنا : أليس من الوهم أن نظن وجود عدد كبير من الناس غير متدينين وملحدين ؟ إن الناس ليخلطون ، وخاصة فى بلادنا ، بين المجافاة الظاهرة لصورة من صور الدين ، أو لعقيدة من عقائده ، أو لمذهب من مذاهبه ، أو لتقليد من تقاليده ، وبين الإلحاد واللادينية ؛ وهذا خطأ كبير . فكم رجل من هؤلاء الثائرين لا يتبع دينا من الأديان تديناً ، بل منهم من قطعوا علائقهم بالصور الدينية العامية ، عندما أحسوا بيقظة روح دينية فى نفوسهم أعلى وأكثر تجردا عن المصالح المادية من الأديان الموجودة بين أيديهم . وبمحادثاتى الى عدد من هذه الأرواح التى يقال عنها إنها مجردة من العقيدة ، وقد يخيل إليها هى أيضا أنها غير متدينة ، وجدتُ دائما أن الناس لا يعتدون من هؤلاء إلا بما ينكرون بدون نظر الى ما يثبتونه . فالرجل الذى يعلن بأنه كافر ، هو فى الحقيقة ليس بكافر إلا بالإله الذى يعتقد به غيره . فهو ينكر إله قسيسه أو كاهنه ، وإله طفولته أو إله جيرانه ؛ ولكن تأمله جيدا تجد أن له إلها لا تدركه الأبصار فى صميم روحه ، يعبده باسم خاص به ، ويجود بنفسه كل يوم فى سبيله . وإذا لم يكن هذا الإله عاليا ، كان وا أسفا إلها منحطا غليظا . فيستحيل على الانسان أن يعيش بدون أن يخرج عن نفسه ، وأن لا يهبها لشىء من الأشياء . وليس شىء أكثر محالا من اعتبار أن هناك تعارضا بين الاعتقاد بإله لا تدركه الأبصار ، حاضر وفعال على الدوام ، وبين الحياة العليا للعقل الذى بعمله القوى فى الخفاء يوجد العقيدة بالله فينا . فيأيها العدل ويأيتها الرحمة التى تخدمهما وتسعى لتحقيقهما جميع الأرواح الخيرة ، ويأيتها الحقيقة التى يبحث عنها الفلاسفة والعلماء ، ويأيها الجمال الجذاب الذى يتراءى لنا ثم يفر على الدوام ، ويتعقبه ... ده الفنانون : ماذا أنتن جميعا إذا لم تكونى وجوها متعددة لهذا الهيكل الباطن القائم

فى صميم كل ضمير إنسانى ، الهيكل الذى يتوجه به كل إنسان الى الإله الذى ليس له اسم ، مهديا إليه أحسن ما لديه من روحه ومن حياته !

لا يوجد فى الواقع إلا صنف واحد من الناس يمكن أن يوصف بالكافر وبالملحد : ذلك هو الصنف الفسل (١) الذى يتخذ من فسولته سلاحا وستارا فى آن واحد لحياة قوامها الأثرة الوحشية المتغشمرة . إذاً لا توجد لا دينية حقيقية إلا تلك الحالة النفسية القاحلة المحرقة التى يتولد منها على الدوام السخر والازدراء ، ذلك المذهب الذى يهزأ أصحابه بكل شىء ويزدرونه ، وهو المذهب الذى سماه (جول لومتر) بالاستهزائية . وفى هذا أىُّ تأكيد مؤثر لجميع ما قلناه ! فصحيح إذن أن من يهزأ بالعقيدة فى الله يجب أن يبدأ بالاستهزاء بنفسه ! وصحيح أيضا أن فى العيش مع الأثرة والمادية ، لا يمكن أن يوجد سبب كاف للاستمرار فى الحياة . وصحيح كذلك أنه لأجل بقاء الشخصية وعدم انطفائها فى الظلام الدامس ، يجب أن يتضاعف الشعور بالذات فى باطن الشخصية ، أريد بذلك أن أقول : يجب أن يتضاعف بالشعور بوجود الله .

« إذا كان الأمر كذلك فانى لا أتردد فى القول بأنى لا أريد أن أعتزل العالم فى فكرة خالصة من جميع العلاقات وجميع الواجبات ، فان تكافلا أخويا ارتبطنى قبل أن أوجد على هذه الأرض . فأنا واحد من أفراد القافلة الانسانية ، ولن أنفصل عنها ، وسأسير فى طريقها ، وسأشاطرها آلامها وآمالها ، وسأقول لها : « إن إلهك هو إلهى ، وإيمانك هو إيمانى » ؛ وسأجتاز مع هذه السيارة الكبيرة المسكينة (٢) الصحارى والقفار ، وإن لزم أن أكون ضحية السراب الذى يخادعها ، فسأتجه معها نحو الأفق الذى يتألق فيه ذلك الكوكب العجيب الذى يهديها ويجتذبها . جملة القول : أنى متدين لأنى إنسان ولا أستطيع أن أفر من الانسانية » ؟

رأينا فى هذا البحث الخطير

عربنا هذا البحث الفلسفى الخطير للاستاذ الكبير (اجوست سباتييه) مدرس الفلسفة فى جامعة باريز ، وهو كما رأى القراء يرمى الى إثبات أن الدين فطرى فى النفس البشرية ، وأنها لا معدى لها عنه ، وأن الانسانية لا يكون لها معنى إذا تجردت منه . وهذا يوافق ما قرره الاسلام من كل وجه . ولا يخفى ما لمثل هذا البحث من الأثر فى تأييد دين الفطرة فى هذا العهد الذى امتلأت فيه الصدور بالشكوك ، وطمت الشبهات حتى أخذت بمخنق العقول (٣) .

(١) الفسل : الرجل الرذل الذى لا مروءة له ولا جلد . وفعله : فسل يفسل فسالة وفسولة ، على وزان كرم .
(٢) السيارة : القافلة ، وأصلها القوم يسيرون . قال الله تعالى : « يلتقطه بعض السيارة » أى بعض الذين يسيرون .
(٣) المخنق : موضع حبل الخنق من العنق .

وقد حرصنا على توفية مبدأ الترجمة الحرفية حقه ، رغما عما فى البحث من تسامح فى التعبير ألفته الفلسفة الغربية وجرت عليه ، وهو ديدننا فى كل ما ننقله عن الفرنجة ، ليتبين منه رأيهم الصحيح ، ويتضح مرمى ما يكتبون .

وهنا يحسن أن ننبه القارىء الى أن كتاب الأستاذ اوجوست سباتييه واحـد من بضعة مؤلفات قال عنها النقاد إنه يرجع إليها الفضل فى إيقاظ العاطفة الدينية فى القرن العشرين .

على أنى ألاحظ على الأستاذ المؤلف إسرافه فى تقدير عدد المتدينين ، وفى الخلط بين الإله الحق وإله الهوى الذى يخضع له الأكثرون ، ولـكنهم لا يعتبرونه إلها . فمثل هـذا الإطلاق لو سُمح به فى الشعر فلا يُسمح به فى تحقيق فلسفى عميق كالذى نحن بصدده .

يقول الأستاذ سباتييه : إن من الوهم أن نظن أنه يوجد عدد كبير من الناس غير متدينين وملحدون ، ويضرب لنا مثلا بمن يكفرون باله طفولتهم أو إله جيرانهم ، ولهم إله لا تدركه الأبصار فى صميم أرواحهم يجودون بأنفسهم فى سبيله .

هذا حسن ولا نجادل فيه ، وفى رأينا أن هؤلاء أفذاذ فيمن يصرحون بأنهم لا دينيون ، ولـكن أكثرهم لا يعلنون سريرتهم ويبقون معدودين من الملل التى نشأوا فيها ، مكتفين بالترفع عما وقع فيه العامة من التجسيد والتشبيه ، وعازيه الى جهلهم وعاميتهم ، ومتربصين بحيدانهم عن القصد أن يزول عندما ينتشر فيهم العلم ، وتنير بصائرهم الفلسفة .

أما الذين اتخذوا لهم إلها منحطا غليظا ، فلا يصح أن يوصفوا بالتدين ، لأنهم يعرفون جيدا أن هـذا الاله المنحط الغليظ هو هواهم ، فاذا كانوا وهبوه أنفسهم فهم يعترفون بأن ذلك سيوصلهم الى سوء المنقلب . وهذه الحالة ليست من التدين فى شىء ، ولا تؤدى الى ما يؤدى إليه الإخبات والخشوع ، والشعور بالتبعية لقيوم السموات والأرض .

وقول الأستاذ : « لا يوجد فى الحقيقة إلا صنف واحد من الناس يمكن أن يوصف بالـكافر وبالملحد ، هو الصنف الفسل الذى يتخذ من فسولته سلاحا وستارا فى آن واحد لحياة قوامها الأثرة الوحشية المنغشمرة » ، فهو صحيح ، ولـكنى أخالف الأستاذ فى ذهابه الى أنه قليـل العدد . نعم ، إنه كان كذلك فى القرون الماضية ، أيام كان للدين السلطان المطلق على القلوب والعقول ، أى الى ما قبل نحو ثلاثة قرون ، ولـكنه بعـد ذلك بدأ يكثر تحت قيادة علماء حاكموا المعتقدات الى المقررات العلمية ، وأثبتوا مجافاتها لها من كل وجه ، ونشروا ما كتبوه بين العامة ، فأنـكروه أولا ونفروا منه ، ثم ألفوه وأساغوه ، ثم هاموا به وتدلهوا فيه ، حتى أصبح اليوم دين أكثر المتمدنين . فاذا كنا نبحث عن التدين الآن ، فنحن نعمد الى كبار العقول أمثال اوجوست سباتييه من أقطاب المفكرين ، لا الى الأوساط الذين تشبعوا بالمبادىء المادية وجمدوا عليها ، متابعين فى ذلك ما كتبه خصوم الدين فى القرون الثلاثة الأخيرة.

ولا أخفى القراء أنى مهما أظهرت إعجابى بالتحليل النفسانى الذى قام به الأستاذ اجوست سباتييه ، وأثبتَ به أن التدين هو معنى الانسانية ولا إنسانية بدونه ، فانى لا أزال أرى أن قضية الدين تحتاج لشاهد من العلم نفسه ، يأبى النفوس من ناحية الدستور الذى سنه وأصبح العمل به ضربة لا زب على العقول .

ذلك أن العلم قد غرس فى النفسية البشرية فى العهد الحديث ، أن كل معقول لا يؤيده دليل محسوس ، لا يمكن أن يؤدى الى اليقين الذى تثلج عليه الصدور ، وتطمئن اليه القلوب . فمهما تأدى الانسان بواسطة التحليلات المدققة الى نتائج ، فانها لا تخرج عن كونها من المعقولات التى يعوزها الدليل المحسوس . ولا يخفى أن العقيدة لا تبلغ درجة التأثير العملى إلا إذا وصلت الى درجة اليقين ، وأين هى فى هذه الحالة النفسية للمعاصرين ، الذين يتطلبون الدليل المحسوس ، ولا شئ غير الدليل المحسوس ؟ فالتدين فى هذا العهد يحتاج الى هذا الدليل المحسوس .

ليس الحصول على الدليل المحسوس فى الشئون الاعتقادية فى هـذا العصر من الصعوبة فى الدرجة التى يتوهمها الأكثرون ، فيكفى فيها هدم عقيدة سلبية أقامتها الفلسفة المادية من طريق الآراء العلمية ، لا من طريق الأدلة الحسية ، واكتسبت بالجرى عليها صفة المقررات اليقينية وما هى منها فى شىء .

هذه العقيدة السلبية هى أن الوجود ينحصر فيما تدركه الحواس الانسانية ، ولا شىء فوقه أو وراءه يدبره ويتحكم فيه ، فهو قديم بمادته وقواه ، وقائم بنفسه لا يحتاج لسواه ، وأن كل ما يقال عن خضوعه لقوى أرفع منه ، وعن تخلف نواميسه بعوامل غير طبيعية ، فهُراء لا يجوز الالتفات إليه .

يتنزل من هـذه العقيدة أصول تناسبها، وهو أن لا روح مستقلة للانسان ، ولا بقاء له بعد هذه الحياة فى عالم أرفع من هـذا العالم ، وأن الفضيلة والرذيلة أمران اعتباريان ، وأن الحياة البشرية قائمة على ما تقوم عليه الحياة الحيوانية من الصيال والنضال ، وأن المثل الأعلى للانسان أن يصل الى درجة السوبرمان ، أى الانسان الحاصل على أقصى ما يمكن الوصول اليه من الكمال ، الكمال المقرر عند الماديين ، وهو بلوغ قواه البدنية ، وخصائصه العقلية ، وإرادته الشخصية ، الى أعلى ما يمكن أن تصل اليه على مقتضى الاعتبارات المادية ، لا الاعتبارات الروحية ، التى هى فى نظرهم من بقايا الأوهام الجاهلية .

فهذه العقيدة السلبية التى أقامت صرحها الفلسفة المادية ، وأحكمت بناءها فى مدى الثلاثة القرون الأخيرة ، قد صادفت فى هذا العهد الأخير من الاستكشافات العلمية ما هدمها من أعمق قواعدها ، بل ما نسفها نسفا وذراها فى الهواء . ونصب مكانها عَلَم التعاليم الروحية مؤيدا بأقوى الأدلة الحسية ، على ما تحب الفلسفة العملية ، ويتطلبه أهل العصر الراهن من الحجج المادية .

فى رأيى أن تنبيه الغريزة الدينية فى هذا العصر يقتضى أولاً تحطيم هذه البَنِيَّة الإلحادية فى عقول الناس ، فقد أوت منها على درجات شتى فى الصميم ، باعتبار أنها مصاصة التفكير الحديث الخالص من سلطان القديم . ولا يكفى فى تخليص الفطرة الانسانية من ظلمات هذه المادية ما يُفَصله الأستاذ أجوست سباتييه من التضاد بين الشعور الباطنى للانسان ، وما عليه الوجود الخارجى من عدم المبالاة به . فاننا نشاهد اليوم أن هذا الشعور بالتضاد وبفداحة تكاليف الحياة قد زادت الماديين مضيا فى إلحادهم ، بل اتخذوا من شدة وطأة هذه التكاليف دليلا محسوسا على نفى العناية الإلهية التى يدين بها المؤمنون . وكانت النتيجة الطبيعية لهذا الشعور أن جدوا على ما هم عليه ، ونشطوا لنشر آرائهم على صور شتى ، بثوا فيها من سموم الإلحاد ما قَدَر سحر البيان عليه .

فالدواء كل الدواء فى نظرى ، هو هدم تلك العقيدة الإلحادية الثاوية فى أعمق ثنايا الصدور ، وهدمها لا يحتاج الى جهد عنيف ، فإن حوادث خارقة للنواميس طرأت منذ نحو تسعين سنة ، اضطرت أعلى علماء الكون عقولا أن يبحثوا فى علة حدوثها ، فعثروا على حدود العالم الروحانى الذى طالما كذَّب به الماديون ، وبنوا على تكذيبهم به كل ما أسسوه من النظريات المادية ، ونمقوه من البحوث الإلحادية .

وفى رأيى أن تدريس هذه البحوث يجب أن يبدأ به فى المدارس الدينية ، فان ما ثبت علميا اليوم من هذه الدراسات الروحية هو من أقوى أسلحتها فى محاربة المادية . ولا يحط ذلك من قدر هذه المدارس بعد أن اعترف بها العلم الرسمى نفسه . فقد قررت جامعات امريكية تدريس هذه البحوث منذ بضع سنين ، وقررت جامعة كامبردج الانجليزية ، وهى من أشهر الجامعات العالمية ، تدريسها فى شهر مايو من هذه السنة (١٩٤٠) ، وستبتدأ الدراسة فيها فى اكتوبر المقبل . وهذا فتح دينى خطير لم يسجل تاريخ البشرية له ضريبا . وقد أعلناه لقراء العربية فى جريدة الأهرام فى شهر يونيو الماضى .

وقد نشرت الجرائد الانجليزية هذا الخبر ، وعززته المجلة الروحية (La Revue Spirite) فقالت عنه فى عدد شهر مايو من هذه السنة : « فتح جديد قد كسبناه » بعد تمهيد :

« مما يجب أن يسجل هنا عما حدث فى جامعة كامبردج ، هو أننا لمحنا فيه أن العلم الوضعى قد خطا خطوة جديدة ودخل الى مجال سبق لعلماء ممتازين أن درسوه ومحصوه . ومما يجب تكراره فى كل مناسبة أن اليوم الذى يعترف فيه العلم بالعالم الروحانى ، يخطو فيه بالانسانية الى درجة من الرقى لا يتصورها العقل الآن . . . ونحن فى فرحنا لما حدث ، وأملنا العظيم فيه ، نبعث بأفكارنا المشجعة الى الذين قاموا بوضع هذا الكرسى الجديد للدراسة الروحية بجامعة كامبردج » .

العقبات التي تحول دون تدريس هذا العلم بالمدارس الدينية :

لما ظهرت هذه البحوث فى أمريكا سنة (١٨٤٧) أولاً ، ثم انتقلت الى انجلترة وفرنسا وألمانيا وإيطاليا وغيرها ، تولاها بالبحث علماء أعلام ، وقرروا أنهم حيال عالم روحانى حافل بالمدهشات تجب دراسته بصبر وتثبت عظيمين ، وغَلَ فيه (١) عدد لا يحصى من خفاف العقول ، وأخذوا يجربون فيه تجارب للحصول على أنباء شخصية ، وليس لهم من صفة التمحيص العلمى ، والتثبت العقلى ، ما يقيهم المزالّ (٢) ، فأساءوا الى سمعة هذه المباحث الخطيرة أيما إساءة ، فتخيلها البعيدون عنها أن الغرض منها استحضار الأرواح وسؤالها عن توافه الأمور . هنا كان المجال فسيحا أمام المشعوذين والمخرقين ، الذين يستغلون سرعة تصديق الناس ، فكانوا عقبة كأداء أمام تقدم البحوث العلمية فى هذه السبيل .

ولكن العلماء دأبوا على ما هم فيه بصرف النظر عن كل ما حدث حولهم ، وأجروا تجاربهم فى بيوتهم الخاصة وجامعاتهم ومعاملهم ، فتأدوا الى اكتشافات بعيدة فى عالم الروح يجب أن تضاف لحساب الدين ليستغلها المشتغلون بنشره بالأدلة المحسوسة .

هذه العقبات قد ذللت الآن بكثرة عدد العلماء الذين ألفوا فيه ، وبكثرة جمعياتهم التى قصروها على أنفسهم ، وبتقرير عدة جامعات لتدريس هذه البحوث وزيادة مادتها ، وفى مقدمتها جامعة كامبردج كما رأيت .

فالطريق إذن قد أصبحت ممهدة أمام المجددين . **محمد فريد وجدى**

---

(١) وغل يغل وغلا على وزن ضرب : دخل متطفلا

(٢) المزال : جمع المزلة وهو المكان الذى يزل فيه . وأصل الزلل السقوط .

الكلام والصمت

قال على كرم الله وجهه : بكثرة الصمت تكون الهيبة .

وروى أن قوما تحدثوا عند الأوزاعى العالم المشهور وفيهم أعرابى لم يتكلم ، فقال له بعضهم : لم لم تتكلم ؟ فقال : إن الحظ للسامع فى أذنه ، وإن الحظ فى لسانه لغيره . يريد أن من يستمع لغيره يحظى بما يسمعه ، ولا حظ لمن يتكلم إذ ينتقل لسامعه .

وقال الامام النَّخَعى : كانوا يتعلمون السكوت كما يتعلمون الكلام .

هذا كلام ثمين ، فان من يعرف كيف يتكلم يجب أن يعرف كيف يسكت ، فقد يضيع المحسن بتوسعه فى الكلام ، ما يكسبه من إحسانه فيما هو بسبيله .

الكلام والمتكلمون

— ٨ —

الامام الغـــــزالى

تتمة الحديث عن نضاله مع الفلاسفة :

هاجم الغزالى الفلاسفة مهاجمة عنيفة فى كتابيه : « المنقذ من الضلال » ، و « تهافت الفلاسفة » . وقد قسمهم فى الأول الى ثلاثة أقسام :

القسم الأول الدهريون ، وهم عنده طائفة من الأقدمين جحدوا الصانع المدبر ، العالم القادر ، وزعموا أن العالم لم يزل موجودا كذلك بنفسه لا بصانع ، ولم يزل الحيوان من نطفة ، والنطفة من حيوان ، كذلك كان وكذلك يكون أبدا . وهؤلاء هم الزنادقة .

والقسم الثانى الطبيعيون ، وهم فى رأيه قوم أكثروا بحثهم عن عالم الطبيعة وعن عجائب الحيوانات والنبات ، وأكثروا الخوض فى علم تشريح أعضاء الحيوانات ، فرأوا فيها من عجائب صنع الله وبدائع حكمته ما اضطروا معه الى الاعتراف بقادر حكيم ، مطلع على غايات الأمور ومقاصدها . ولا يطالع التشريح وعجائب منافع الأعضاء مطالع إلا ويحصل له هذا العلم الضرورى بكمال تدبير البانى لبنية الحيوان ، لا سيما بنية الانسان ، إلا أن هؤلاء لكثرة بحثهم عن الطبيعة ظهر عندهم لاعتدال المزاج تأثير عظيم فى قوام قوى الحيوان به ، فظنوا أن القوة العاقلة من الانسان تابعة لمزاجه أيضا ، وأنها تبطل ببطلان مزاجه فينعدم ، ثم إذا انعدم فلا يعقل إعادة المعدوم كما زعموا ، فذهبوا الى أن النفس تموت ولا تعود ، فجحدوا الآخرة ، وأنكروا الجنة والنار ، والقيامة والحساب ، فلم يبق عندهم للطاعة ثواب ، ولا للمعصية عقاب ، فانحل عنهم اللجام ، وانهمكوا فى الشهوات انهماك الأنعام . وهؤلاء أيضا زنادقة ، لأن أصل الإيمان هو الإيمان بالله وبالرسول واليوم الآخر . وهؤلاء جحدوا اليوم الآخر وإن آمنوا بالله تعالى وبصفاته .

والقسم الثالث الإلهيون ، وهم فى نظره المتأخرون منهم ، مثل : سقراط ، وهو أستاذ أفلاطون ، وأفلاطون هو أستاذ أرسطاليس ، وأرسطاليس هو الذى رتب لهم المنطق ، وهذب العلوم ، وخمّر لهم ما لم يكن مخمرا من قبل ، وأنضج لهم ما كان فجًّا من علومهم ، وهم بجملتهم ردوا على المصنفين الأولين من الدهرية والطبيعية ، وأوردوا فى الكشف عن فضائحهم ما أغنوا به غيرهم ، (وكفى الله المؤمنين القتال) بتقاتلهم ؛ ثم رد أرسطاليس

على أفلاطون وسقراط ومن كان قبلهم من الإلهيين ردا لم يقصر فيه حتى تبرأ عن جميعهم ، إلا أنه استبقى أيضا من رذائل كفرهم بقايا لم يوفق للنزاع منها ، فوجب تكفيره وتكفير متبعيه من متفلسفة الاسلاميين كابن سينا والفارابى وأمثالها . على أنه لم يقم بنقل علم أرسطاليس أحد من المتفلسفة الاسلاميين كقيام هذين الرجلين ، وما نقله غيرهما ليس يخلو من تخبيط وتخليط يتشوش فيه قلب المطالع حتى لا يفهم ، وما لا يفهم كيف يرد أو يقبل (١) .

وأهم ما يلفت النظر فى هذه النصوص ، هو أن الغزالى وفق الى مالم يوفق إليه الفارابى من معرفة الفرق بين فلسفتى أفلاطون وأرسطو ، ومن الإيقان بأنهما كانا خصمين فى مذهبيهما ، وأنه قد وقع بينهما نضال فى أصول المذهبين ، على عكس ما تصور الفارابى من أن الفلسفتين متفقتان فوضع كتابه « الجمع بين فلسفتى الحكيمين : أفلاطون وأرسطو » . ولعل السبب فى تخلص الغزالى من هذه الخدعة هو أن التقريب الذى اصطنعه أتباع « الأفلاطونية الحديثة » بين هذين الفيلسوفين لم يصح عنده ، فصرح بأن خصومة قامت بينهما ؛ ولكن ينبغى أن نعلن أيضا أن أبا حامد قد أساء فهم سقراط وأفلاطون كل الإساءة ، بل إن انخداعه فى مذهبيهما أكثر خطورة من انخداع الفارابى فى مذهب أرسطو ، لأن سقراط لم يأخذ عليه الى الآن أحد من مؤرخى الفلسفة المحترمين أية هفوة فى آرائه عن الألوهية وخلود النفس والحياة الأخرى . وكذلك أفلاطون — إذا استثنينا مسألة التناسخ — لم يؤخذ عليه شىء فى مذهبه الإلهى ، على عكس أرسطو الذى شهدت كتبه الحقيقية بقوله الذى لا شك فيه بأن العالم لا صانع له ، وبأن الإله لم يزد على كونه أول المحركات ، وبأنه لا يعلم شيئا عن العالم مطلقا ، وبأن النفس لا تحيا ألبتة حياة شخصية ، وبأن القول بشعورها أو تعقلها أو حياتها بعيدةً عن الجسم ضرب من الخيال العابث ، الى آخر ما قرره فى كتبه ورد عليه فيه تلاميذه ومعاصروه وزعماء الأفلاطونية الحديثة .

أما طريقته فى كتاب « التهافت » فهى تختلف كثيرا عن طريقته فى « المنقذ » ، إذ أنه فى هذا الأخير يعرض للمذاهب عرضا موجزا سطحيا لا يروى ظمأ ولا ينقع غلة ، بينما هو يتناول فى « التهافت » النظريات التى هى فى رأيه خاطئة ، فيبسطها بفصاحة ولباقة قل أن يوفق الى مثلهما صاحب النظرية نفسه ، ثم يسرد براهينها فى وضوح وجلاء ؛ فاذا انتهى من كل هذا ووضع النظرية موضع الملموسات ، أخذ يوجه الى صميمها من سهام النقد ما يهدم به حججها أو يضعفها على أقل تقدير . وبهذا يتم له ما يريد من إبطالها ، أو من نزع الثقة فيها . ويعلق الأستاذ « كرّادى‌فو » على هذه الطريقة بما يفيد أن الغزالى قد بسط بعض نظريات ابن سينا بسطا لم يقم به مؤلفها نفسه ، وبأنه إذا تعقب كتب الشيخ الرئيس لم يجد فيها أكثر من عناصر

(١) انظر صفحتى ١٠ و ١١ من كتاب « المنقذ من الضلال » للغزالى .

أولية لكثير من هذه النظريات التى بسطها الغزالى فى كتبه ونسبها الى صاحبها بعد أن وضحها فى شىء من الدقة . ومن العجيب أن ابن رشد قد طعن عليه فى هذا المنهج ، ورماه بأنه لم يحسن بسط هذه النظريات ، وبأن السبب فى عدم هذا الإحسان إما أن يكون الجهل أو عدم النزاهة . ولعل فى نقد ابن رشد شيئا من التحامل .

هاجم أبو حامد الفلاسفة فى عشرين مسألة ، منها ست عشرة فيما وراء الطبيعة ، وأربع فى الطبيعة ، وهى تتلخص فيما يلى :

(١) قولهم بقدم العالم . (٢) قولهم بأبدية العالم والزمان والحركة . (٣) تضليلهم فى قولهم بأن الله فاعل العالم وصانعه . (٤) عجزهم عن الاستدلال على وجود الصانع للعالم . (٥) عجزهم عن إقامة الدليل على أن الله واحد . (٦) اتفاقهم على استحالة إثبات العلم والقدرة والارادة للمبدأ الأول . (٧) قولهم بأن الأول لا يجوز أن يشارك غيره بجنس ويفارقه بفصل . (٨) قولهم : إن وجود الأول بسيط . (٩) عجزهم عن إقامة الدليل على أن الأول ليس بجسم . (١٠) عجزهم عن إقامة الدليل على أن للأول مبدأ وعلة . (١١) عجز من يرى منهم أن الأول يعلم غيره ويعلم الأنواع والأجناس بنوع كلى عن إثبات ما يرى . (١٢) عجزهم عن إقامة الدليل على أن البارى يعلم ذاته . (١٣) قولهم بأن الله لا يعلم الجزئيات . (١٤) قولهم : إن الأفلاك حيوانات مطيعة لله تعالى بحركاتها الدورية . (١٥) قولهم بأن للأفلاك قوى تحركها ، وغايات تتجه اليها . (١٦) قولهم بأن النفوس الفلكية مطلعة على جميع الجزئيات الحادثة فى هذا العالم . (١٧) قولهم بضرورة اقتران المسببات بالأسباب . (١٨) عجزهم عن إقامة البرهان العقلى على أن نفس الانسان جوهر روحانى قائم بنفسه . (١٩) قولهم بأن النفس الانسانية يستحيل عليها العدم بعد وجودها وأنها سرمدية . (٢٠) إنكارهم لبعث الأجساد .

على أن الباحث إذا نظر فى أصول هذه المسائل العشرين ، وفى الموضوعات التى تعالجها ، استطاع أن يضغطها فيحولها — كما فعل « البارون كارادى فو » — الى بضع مسائل ، مثل : (١) أزلية العالم وأبديته . (ب) علم الله بالجزئيات ، وهى تتناول بالمجاورة مسألة الصفات . (ج) مسألة الأفلاك ، وهى قليلة الأهمية . (د) النفس البشرية وكل ما يتعلق بها . (هـ) نظرية الأسباب والمسببات .

فأما النظرية الأولى ، وهى نظرية أزلية العالم ، فقد وردت كما ورد غيرها من النظريات فى كتب فلاسفة المسلمين صريحة واضحة ، كما يتبين ذلك من كتب الفارابى وابن سينا وابن رشد .

ومن أقوى الأدلة التى ساقها الفلاسفة ، وأكثرها أثرا فى الحياة العقلية ، لا فى الشرق وحده ، بل فى أوروبا فى القرون الوسطى ، هو قول ابن سينا لخصومه القائلين بحدوث العالم ما معناه : إن كنتم تقولون بحدوث العالم ، فإنكم لا شك تعترفون بأن كل حادث كان قبل

حدوثه ممكنا . ولما كان الامكان صفة وجـودية ، ولما كانت الصفة الوجـودية لا تقوم بذاتها ، فقد وجب أن يكون هناك موصوف وجودى سابق على هذا الحادث ليقوم به الإمكان ، وهذا الموصوف السابق على الحادث هو الهيولى . وإذاً ، فالهيولى سابقة على كل حادث ممكن .

غير أن الغزالى قد أجاب على هذا الإشكال بأن الإمكان ذهنى لا يحتاج ألبتة الى موجود خارجى يقوم به ، لأن جميع المفاهيم الذهنية كالإمكان والوجوب وما أشبهها أمور اعتبارية لا حقائق خارجية حتى تحتاج الى موجود ثبوتى تقوم به .

وكما أنكر الغزالى سابقية الهيولى على الحـوادث الممكـنة ، أنـكر كذلك كل أزلية عدا أزلية البارى ، ورد على الفلاسفة فيما زعموه من أن هـذه الأزلية ضرورة لا محيص عنها لنفى وقوع التغير فى ذات البارى ، أو صيرورتها محلا للمرجح الحادث ، أو انقلاب حقيقة الحادث الى الإمكان بعد الاستحالة ، أو غير ذلك مما يترتب على القول بحدوث العالم ؛ ولـكنه قبل أن يرد عليهم أوضح نظريتهم إيضاحا تاما كما هو ديدنه دائما . وقد ورد هذا الإيضاح ومناقشته ببسط واف فى صفحتى ٧و٨ من كتاب « تهافت الفلاسفة » فارجع اليه إذا شئت .

ومن أبدع ما رد به أبو حامد على الفلاسفة فى نظرية أزلية الزمان ، قوله لهم ما معناه : إنكم صرحتم بأنه لا يوجد وراء هذا العالم لا ملاء ولا خلاء ؛ ولما كان هذا العالم عندكم محدودا ، فقد وجب أن يكون المكان فى رأيكم متناهيا بتناهيه ما دام لا يوجد بعده لا ملاء ولا خلاء . وإذ كان قد ثبت تناهى المكان فلا معنى لأن لا يثبت تناهى الزمان .

ومن هذه الاعتراضات التى ساقها الغزالى الى خصومه ما يأتى :

إنى لا أدرى كيف تقـولون بلا نهائية الزمان مع جزمكم بانتهاء الأسباب الى سبب أول تسمونه صانع العالم . فإذا كان الزمان عندكم يتسلسل الى غير النهاية ، فلم لا تتسلسل الأسباب أيضا الى غير نهاية ؟ لا ريب أن الدهريين الذين يقولون بأزلية العالم وينكرون صانعه بتاتا هم أكثر منكم تمشيا مع المنطق ، إذ ما قيمة القول بالصانع لعالم أزلى لم يسبقه عدم ، ولم يتقدمه هذا الصانع إلا تعقلا فقط ؟

ومن المهاجمات رده القيم الذى وجهه الى ابن سينا ، إذ قرر هذا الأخير فى إشاراته أن سلسلة الأسباب العامة ممكنة الوجود ، لأنها مؤلفة من حلقات ممكنة ، والمؤلف من الممكن ممكن . ولهذا كان لا بد من طرف خارج عن هذه السلسلة ، وهو واجب الوجود . فقال له أبو حامد : إنـكم لا شك تعترفون بأن اليوم والليلة متناهيان ، ولا تجحدون أن الزمان مكون من الليالى والأيام على نحو ما تكونت سلسلة الأسباب من حلقاتها ؛ فعلى طريقتكم فى التفـكير ، كان يلزمكم أن تقولوا : إن المؤلف من المتناهى متناه كما جزمتم بأن المؤلف من الممـكن ممكن .

اما مسألة إنـكار الفلاسفة على البارى العلم بالجزئيات ، وقول ابن سينا : إنه يعلمها بطريقة

كلية فحسب ، لأن علمه بالأفراد وأعمالهم نقص فى حقه ، إذ الأفراد مشخصة ، والمشخصات لا تكون موضوعا إلا للعلم المؤسس على الحواس ؛ ولما كان علم الله غير مؤسس على الحواس ، فقد تنزه عن الاحاطة بالأفراد المشخصة ؛ وكذلك أعمال الأفراد هى متغيرة متحولة ، وتغير المعلوم يقتضى تغير العلم ، وتغير العلم يقتضى تغير العالم ، والتغير على البارى محال ، فقد وجب أن يتنزه علم البارى عن الجزئيات المتغيرة . وقد آثرنا أن نكتفى فى هذه المسألة بما أسلفناه فيها حين عرضنا لفلسفة ابن سينا فى مقالات سابقة تجنبا للإعادة .

أما مسألة ارتباط الأسباب بالمسببات ، وضرورة وجود الثانية متى وجدت الأولى مستكملة لشروطها ، وعدم وجود المسببات من غير أسباب ، وهى المسألة التى أجمع عليها الفلاسفة ، فقد أنكرها أبو حامد كما أنكرها الأشعرية من قبله ، ورد فيها على الفلاسفة ردودا طويلة جاء فيها أن أولئك الحكماء ليس لهم على صحة دعواهم دليل غير مشاهدة وقوع هذه المسببات ، وهذه المشاهدة تثبت أن المسببات وقعت عند وجود الأسباب ولا تثبت أنها وقعت بها . والفرق بين الحالتين جلى ، لأن الشمس مثلا تلقى أشعتها على وجه القصار وقماشه ، فيسود الأول ويبيض الثانى . وهو يعترض عليهم أيضا بقصة ابراهيم وعدم تأثير النار فى جسمه ، وما شاكل ذلك ؛ ولكن قد فاته فى هذه المسألة أن الفلاسفة يوجبون لتأثير الأسباب فى مسبباتها استكمال الشروط الطبيعية . وعلى هذا يكون اعتراض أبى حامد ضعيفا ، لأن الفلاسفة لا يسلمون بإمكان نجاة ابراهيم من النار إلا بعلل خاضعة للناموس الطبيعى ، كانطفاء النار ، أو انطلاء جسد ابراهيم بما يحفظه منها .

لم تقتصر مهاجمة أبى حامد للفلاسفة على النظريات التى اعتقد بطلانها ، بل هاجمهم فى نظريات هو مؤمن بصحتها ، ولكنه أراد أن يثبت عجزهم عن التدليل على صحة ما يدعون . ومن ذلك مسألة جوهرية النفس البشرية ، فإنه هاجمهم فيها مع إيمانه بصحة آرائهم ، واعترافه بهذا الإيمان فى قوله : « وليس شىء مما ذكروه يجب إنكاره فى الشرع ، فإنها أمور مشاهدة أجرى الله تعالى العادة بها ، وإنما نريد أن نعترض الآن على دعواهم معرفة كون النفس جوهرا قائما بنفسه ببراهين العقل . ولسنا نعترض اعتراض من يبعد ذلك من قدرة الله تعالى ، أو يرى أن الشرع جاء بنقيضه ، بل ربما نبين فى تفصيل الحشر والنشر أن الشرع مصدق له ، ولكننا ننكر دعواهم دلالة مجرد العقل والاستغناء عن الشرع فيه فنطالبهم بالأدلة (١) » .

ومن هذه المسائل التى صادمهم فيها وهو مؤمن بصحتها ، مسائل : وحدة البارى ، وكونه صانع العالم ومنشئه ، وكونه يعلم ذاته ، وكونه ليس بجسم ، وما شاكل ذلك مما لو حاولنا الإتيان عليه لطال بنا البحث .

الدكتور محمد غلاب
أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

(١) انظر صفحة ٧١ من كتاب « التهافت » للغزالى .

دراسات في القرآن الكريم

الاصول العامة و المبادىء الشاملة فى كتاب الله

تحويلها الى جزئيات معينة

يقول الله تعالى : « يأيها الذين آمنوا لا تَسألوا عن أشياء إنْ تُبْدَ لكم تَسُؤكم ، وإن تَسألوا عنها حين ينزَّل القرآن تُبْدَ لكم ، عفا الله عنها ، والله غفور حليم . قد سألها قوم من قبلكم ثم أصبحوا بها كافرين » :

إن مدار المعنى فى هذه الآية وتفهمه فهما صحيحا ، إنما هو على فهم كلمة « أشياء » . وإن المفسرين يحملون هذا اللفظ على أمرين : الأول : التكاليف الشاقة التى لا يطيقونها ؛ والثانى : أمور خفية وحوادث جزئية وقعت بالفعل تتعلق بأشخاص بأعيانهم .

هذا هو ما يحملون عليه الأشياء التى نهت الآية الكريمة عن السؤال عنها ، لما فى إبدائها بسبب السؤال من مَساءة للسائلين . وعلى ذلك يصير المعنى : إن السؤال عن تلك التكاليف الشاقة مستتبع لإيجابها لتجاوز السائلين للاستسلام لما يلقى عليهم من قِبَل الرسول دون بحث فى كيفية أو كمية ، كما أن السؤال عن تلك الأمور الخفية والحوادث الجزئية مستتبع لإبدائها ، وفى إبدائها مساءة وفضيحة .

ثم إنهم يستندون فى الحمل على النوع الأول ، إلى ما روى عن على رضى الله عنه ، أنه قال :

« خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : « إن الله كتب عليكم الحج » . فقام رجل فقال : أفى كل عام يا رسول الله ؟ فأعرض عنه حتى أعاد ثلاث مرات ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ويحك ! وما يؤمنك أن أقول : نعم ؟ ولو قلت نعم لوجبت ، ولو وجبت ما استطعتم ، ولو تركتم لكفرتم ، فاتركونى ما تركتكم ، فانما هلك من كان قبلكم بكثرة مسائلهم واختلافهم على أنبيائهم . فاذا أمرتكم بأمر فخذوا منه ما استطعتم ، وإذا نهيتكم عن أمر فاجتنبوه » .

ويستندون فى الحمل على النوع الثانى ، إلى ما روى عن أنس رضى الله عنه : « إن الناس سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أشياء حتى أحفوه فى المسألة ، فقام صلى الله عليه وسلم مغضباً فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : والله ما تسألونى عن شىء فى مقامى هذا إلا بينته لكم !

فكان ممن سألوه رجل من قريش يقال له عبد الله بن حذافة ، فقال : يا نبى الله : من أبى ؟ فقال له صلى الله عليه وسلم : أبوك حذافة . ثم قام آخر فقال : أين أبى ؟ فقال : أبوك فى النار » .

هـذا مجمل ما يذكره المفسرون فى بيان الأشياء المنهىّ عن السؤال عنها . وقد قلنا : إن معنى الآية ينبنى على ما يحمل عليه لفظة أشياء .

وإنا قبل أن نعرض لبيان ما نحن مقتنعون بأنه الصواب فى الآية ، لا بدّ لنا أن نمهد لذلك ببيان ما فى هذا الذى ذكروه من خطأ أو ضعف .

ولنبدأ القول فى النوع الثانى ، وهو الحوادث المعينة الواقعة فعلا لأشخاص معينين ، ككون حذافة أبا لعبد الله ، وككون أبى السائل الآخر فى النار . واليك البيان :

إن مما لا يصح أن يكون مراداً للقرآن هو أمثال تلك الحوادث الجزئية ؛ وذلك لأن قوله تعالى فى الآية : « وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم » واضح فى أن ما نهوا عن السؤال عنه إنما هو من قبيل ما يكون للوحى به علاقة ، وواضح أنه لا ينبغى بحال أن يكون للوحى علاقة بتلك الأمور الجزئية ، وتلك الحوادث المتعلقة بشئون خاصة لأناس معينين ، إذ أن مثل هـذا أنزلُ من أن يكون من مقاصد الوحى ، وأصغر من أن يكون من غاياته ؛ فالوحى أسمى من ذلك مقصداً ، والقرآن أجل وأبعد من ذلك غاية . فما أنزل القرآن إلا ليقرر مبادئ عامة الخير ، شاملة النظام ، كافلة إصلاح البشر أبيضه وأسوده ، أو ليبنى أصلا كليا غير مقصور النفع والترقية على أمة دون أمة ؛ ولا مختص التهذيب بشعب دون آخر . على العموم فالقرآن إنما نزل على النبى الكريم ليضع للنظام البشرى قواعد وأصولا ، لا ليبين جزئيات لأشخاص بأعيانهم . القرآن إنما جاء للهداية والإرشاد ، والتهذيب ومكارم الأخلاق ، لا لبيان من هو أبو فلان ؟ أو ما هو مقر فلان ؟ مما لا علاقة له بمقاصد القرآن التى هى مبادئ وقوانين ، وغاياته التى هى كليات وقواعد . وقد قلنا : إن من الجناية على عظمة القرآن وجلاله أن يجدّب وهو خصب روىّ ، ويخفض وهو شامخ علىّ . من الجناية على كتاب الله أن يحد ويقصر وهو المديد المتطاول ، ويضيق وهو الواسع الشامل .

من ذلك تعلم أنه لا يصح أن يكون ذلك مرادا من الآية الكريمة ؛ وما رووه فى هذا الصدد لم يرو أن الآية قد نزلت بسببه ، فليكن ذلك الذى رووه — إن صح — حادثا مستقلا لا علاقة له بوحى ولا بتنزيل .

وأما النوع الأول مما حملوا عليه الأشياء المنهىّ عن السؤال عنها ، وهو الأمور التكليفية ، فالمأخذ على المفسرين فيه هو أنهم قد تركوه مجملا دون أن يفصلوه فيحددوه ، إذ هو محتمل أن يكون من قبيل الأمور التى لم يكن قد نزل فيها وحى يبين أنها من قبيل المكروه

والمحظور، أو من قبيل المطلوب المرغوب ، فيكون السؤال فيه طلبا لبيان حكم الله حتى لا يسيروا فيه إلا على وفق ما شرع الله ؛ ويحتمل أن يكون من قبيل الأمور التى نزل فيها وحى ولكن كانت نصوصه محتملة أكثر من معنى ، فيكون سؤالهم فيها طلبا لتحديد المراد وتعيينه من بين ما احتمله النص من المعانى .

هذان معنيان يحتملهما النوع الأول الذى حملوا عليه لفظ الأشياء فى الآية . فإن هم كانوا يريدون الأول فذلك ما لا يصح أن يكون مرادا للآية ، فقد علمت أن سيدنا عمر بن الخطاب قد كانت له فى ذلك النوع مواقف عدة ، وما كانت قط تلك المواقف داعى مؤاخذة له ، بل كانت على النقيض من ذلك مبعث حمد له وثناء ، وموجب تقدير وإكبار ؛ فلقد طلب الى الرسول أن يكون فى الحجاب تشريع ، كما سأل أن يكون فى الخمر بيان حاسم ، الى غير ذلك من مواقف قد عدت من مفاخره ، وحسبت له فى مناقبه . وأى مؤاخذة على الناس فى أن يمتنعوا عن السير فى عمل من الأعمال إلا على وفق ما يشرعه الله لهم من حظر وتحريم ، أو طلب وتحتيم ، تحرجا منهم أن يسايروا مقتضى تفكيرهم ، خوفا من تغلب الهوى واستيلاء الأغراض ؟

وعلى هذا ، فلم يبق إلا حمل الأشياء فى الآية على ما يكون من قبيل ما نزلت فيه من قبل الله نصوص محتملة لأكثر من معنى ؛ ويكون سؤالهم على هذا طلباً لتحديد المراد من ذلك النص المحتمل ، وتعيين المعنى المقصود منه حتى لا يبقى صالحا للدلالة إلا على معنى واحد . وهذا هو ما أردت أن أحمل الآية عليه ، وأفسرها به ، وإليكم بيان ذلك ، وبالله التوفيق :

إن من المعلوم أن نصوص الشريعة الإسلامية منقسمة من حيث دلالتها إلى قسمين : قسم لا يحتمل أكثر من معنى واحد ، وليس له دلالة إلا عليه ؛ وقسم يحتمل أكثر من معنى واحد ؛ ويسمون الأول فى الاصطلاح الأصولىّ قطعىّ الدلالة ، ويسمّون الثانى ظنىّ الدلالة . ومن مجىء النصوص الشرعية على هذين النحوين ندرك فى يقين أن ذلك مقصود للشارع الحكيم ، وأن ذلك القصد لا محالة يكون لمغزى خطير وحكمة سامية ؛ وما ذلك المغزى ولا تلك الحكمة إلا أن الله قد أراد أن يدفع عن عباده الحرج فيما شرع لهم ، ويرد عنهم المشقة فيما كلفهم به ، رحمة منه وفضلا ، وحكمة وعدلا . ذلك أن الاسلام هو الدين المنزل على خاتم النبيين ، المرسل للناس كافة أسودهم وأبيضهم ، فهو لذلك دين خالد على الزمان ، عام لجميع البشر ؛ فلو كانت نصوصه كلها من قبيل ما لا يحتمل إلا معنى واحدا لكان فى ذلك حمل للناس على اختلاف آفاقهم وأمكنتهم ، وعلى اختلاف تقاليد معايشهم التابعة لطبائع بقعهم وأقطارهم ، وفى مختلف الأزمان ومظاهر العمران ، على طريق واحد فى جميع التكاليف ، وفى ذلك من الحرج والمشقة مالا يحتمل . ويرى فى مقابل ذلك أن فى تعدد السبيل أمام العاملين يسراً ورخاء ، يعيا المرء بهذا السبيل فيتركه إلى سبيل آخر ، وفى كلا الأمرين هو شاعر أنه ممتثل لربه مطيع ، بدلا من أن يضطره العجز لترك الجادة إلى المخالفة والعصيان . هذا من ناحية .

ومن ناحية أخرى ، فقد يكون تحقيق المصلحة التى لأجلها التشريع أو دفع المضرة مرتبطا فى وقت السؤال بأشق الوجـوه التى يحتملها النص ، فيصير بالتحـديد والتعيين لو أجيبوا الى السؤال هو الدين الذى لا يعدل عنه الى سواه ، وفى ذلك الحرج والمشقة التى قد تفضى بهم الى الترك والـكفران .

هذا ، ويجب ألا يغيب عنا فى هذا المقام أن النصوص التى تحتمل أكثر من معنى ، لا تكون إلا فى نوع التـكليف الذى يرتبط تحقيق المصلحة أو دفع المضرة فيه بالوجوه التى يحتملها النص ، بحيث يكون الوصول الى ما قصد بالتـكليف من تحصيل خير أو دفع شر غير مقصور على طريق واحد ، بل تتعدد الطرق الموصلة إليه . وأما ما ترتبط الغاية فيه من التـكليف بطريق واحد فهذا هو ما يدَل عليه بالنصوص القطعية الدلالة ، أعنى التى لا تحتمل إلا معنى واحدا . وعلى ذلك يكون معنى قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لـكم تسؤكم » الآية : لا تطلبوا من الرسول تحـديد نص محتمل ، ولا تحاولوا تعيين معنى من معان صلح النص للدلالة عليها ، فإنـكم إن طلبتم ذلك — والوقت وقت وحى وتشريع — فليس بجائز إذ ذاك أن يعتذر الرسـول عن الإجابة بعدم العلم ، بل لا بد من التحديد والتعيين ، وفى ذلك ضياع لهذا المقصد الأسمى ، وذهاب بتلك الحـكمة العالية ، من رد المشقة عن عباده فيما شرع لهم ، ودفع الحرج عنهم فيما كلفهم به ، وتيسير الدين وتسهيل الأخذ بأحكامه ؛ أى : دعوا المحـكم من آيات الله كما أنزل محكما ، ودعوا المتشابه منها كما أنزل متشابها ، فإن ذلك من المعمود المقصود رحمة بكم وتيسيرا لـكم . وعلى هذا فيكون المقصود بالأشياء التى نهى الله عن السؤال عنها هى المتشابه من آياته ونصوص أحكامه ، أى ما يحتمل منها الدلالة على أكثر من معنى كما قدّمنا ، ويكون المقصود بالنهى هو حماية ذلك المتشابه ، وصيانة هذا المحتمل عن التحديد والتعيين حتى لا يوقعهم ذلك فى الحرج والمشقة التى قد تفضى بهم الى ترك التـكليف ، فيتورطون فيما تورط فيه من قبلهم من الأمم السابقة ، من مخالفة وعصيان ، وترك وكفران ، كما حدثتنا به الآية الـكريمة التى نحن بصددها الآن : « قد سألها قوم من قبلـكم ثم أصبحوا بها كافرين » ، وكما حدثنا القرآن فى موضع آخر عن بنى إسرائيل ، اسمع قوله تعالى : « وإذ قال موسى لقومه إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة ... » الآيات ، فلقد أراد الله بذلك أن يضع أمام أعيننا صورة من صور الغابرين ، ومثـلا من أمثلة المتقدمين ، ليرينا الى أى حد بلغ التـكليف من المشقة ، بمحاولتهم التحديد ، وإمعانهم فى التعيين ، وقد كان بدون ذلك يسيراً سهلا . فهـذا متعلق الأمر فى الآية قد أطلق إطلاقا دون تحديد بلون أو تحديد بسن أو شئ مما حاولوا الاستفسار عنه من رسـولهم ؛ فـلو أنهم بمجرد أمرهم بذلك ذبحوا بقرة ما على وفق الإطلاق فى الآية ، لـكانوا محققين للأمر ، ولـكانوا ممتثلين مستجيبين ؛ لو أنهم ذبحوا بقرة فى أى سن : فارض أو بكر ، وعلى أى لون : صفراء أو حمراء ، وبأى حال : سائمة أو عاملة ، لـكانوا بذلك

طائعين ، ولكنهم بالغوا فى تحديد المحتمل ، وتعيين المتشابه ، تحدد لهم بأندر الجنس وجودا ، وأعزه منالا ، حتى كادوا لا يفعلون .

هذا ، وإنك إذا نظرت الحديث الذى ساقوه للاستدلال به فيما حملوا عليه الآية ، وجدته يشهد لهذا الذى فسرنا به الآية شهادة واضحة جلية . انظر قوله عليه السلام : « إن الله كتب عليكم الحج » ، تجد هذه العبارة كما ترى محتملة أمرين : محتملة أن يكون الحج قد فرض مرة فى العمر ، وأن يكون قد فرض فى كل عام مرة ، وتجد سؤال السائل قد حاول به تحديد أحد المعنيين ، وتجد أن محصل ما قد قال له الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قد كان يصح أن مقتضى الظرف الحاضر يجعل المصلحة فى هذا الوقت مرتبطة بأشق الوجهين ، فيبين به النص المحتمل ، ويعين به المتشابه ، ويصير الحج مفروضا فى كل عام ، وفى ذلك من الحرج والمشقة ما يكاد يقطع معهما بالعجز عن الامتثال ، والوقوع فى المخالفة والكفران ، فلتتركوا الأوامر والنواهى على الحال التى أؤديها اليكم بها .

وعلى العموم ، فإن من الواضح الجلى أن من بالغ الحكمة وعظيم المنة ، أن يكون بين نصوص الاسلام تلك النصوص المحتملة المتشابهة ، لما فى ذلك من رفع المشقة ودفع الحرج . أما أولا : فبتعدد الطرق أمام العاملين ؛ وأما ثانيا : فبعدم تعيين أشق الوجهين مرادا من النص ، مما قد كان يقتضيه الأمر وقت السؤال ، بأن يكون حصول المصلحة أو دفع المفسدة لا يتمان فى عهد السؤال إلا بأشق الوجهين .

ولا يفوتنا فى هذا المقام أن نلتفت الى أن الله تعالى قد نوه بتلك الحكمة السامية ، وأشاد بتلك المنة الجليلة : اقرأ فى أول سورة آل عمران قوله عز من قائل : « هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات ، فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، وما يعلم تأويله إلا الله . والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا ... » الآية ، فان المراد بالمحكم فى تلك الآية هو قطعى الدلالة ، أى الذى لا يحتمل إلا معنى واحدا ؛ والمراد بالمتشابه هو ظنى الدلالة ، أى الذى يحتمل أكثر من معنى واحد . وإنما كان ظنى الدلالة متشابها لأن المعانى التى يحتملها متشابهة فى دلالته عليها وانفهامها منه ؛ وكان قطعى الدلالة محكما لأن المحكم هو المتقن الذى يمنعه إتقانه من التحلحل والفساد . ولما كان قطعى الدلالة ليس فيه للهوى منفذ ، ولا للشهوة والغرض اليه سبيل ، بتأويل ذوى الهوى له الى أهوائهم ، وتوجيهه نحو أغراضهم ، لما كان ذلك فيه غير ممكن لأنه لا يحتمل إلا معنى واحدا ، كان بذلك متقنا محكما ؛ وإنما كان قطعى الدلالة كذلك أُمًّا للكتاب ، لأن الأم هى مرجع أبنائها إذ يفزعون ، ومآلهم بعد مايترددون فيجيئون ويذهبون ، واليها يردون إذ يضلون .

ولما كان محكم النصوص إنما تبنى به أصول الدين وقواعده ، وكان المتشابه المحتمل أكثر من معنى يجب فى تأويله ألا يحمل على معنى يتجاوز تلك الأصول ، بل يجب أن يكون ما يحمل عليه فى داخل تلك الأصول ، لما كان كذلك كان المحكم بمثابة الأم ، والمتشابه بمثابة الأبناء ، فالمحكم هو المآل والمرد للمعنى الذى يحمل عليه المتشابه ، فأى معنى مما يحتمله المتشابه لا يصح أن يحمل عليه حتى يرد الى تلك الأصول ، فإن جاوزها انقطع نسبه عنها وكان من غير الدين ، وإن لم يتجاوزها فهو من الدين ، وذو نسب الى تلك الأصول عريق ؛ ومن ذلك يصير من المفهوم الجلى قوله تعالى : « فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه » ، إذ المعنى على ذلك : أن الذين أظلمت قلوبهم بالشك ، وازدحمت نفوسهم بكراهية الحق ، وولعوا بالبعد منه والميل عنه ، من شأنهم أن يهملوا المحكم من النصوص لأنها لا منفذ فيها للهوى ، وليست محل اختلاف وتردد من ذلك ، وأن يقصروا أنفسهم على اتباع المتشابه يؤولونه الى أهوائهم ، ويحولونه الى أغراضهم ، وإن تجاوزوا به الأصول ونأوا به عن المحكم يبتغون بذلك فتنة الناس ، إذ يكون من شبههم التى يضللون بها أن ما يلقونه على الناس لم يجيئوا به من عند أنفسهم ، بل يزعمون أنه مأخوذ من نصوص الكتاب ، تلك النصوص ذات الاحتمال ، فى حين أنهم لم يرجعوا بها الى المحكم ، مغررين بذلك ومضللين ، وأنهم لو ردوه الى الله والى الرسول ، لو ردوه الى المحكم من آيات الله لأدرك معناه الحق ، وعرف المراد الصحيح منه ؛ ثم إن هؤلاء الزائغين يبتغون الى ذلك مبتغى آخر هو تأويله ، أى رده الى مآل يوافق شهواتهم ويساير أغراضهم ، دون تقيد بمحكم ، ولا رجوع الى أصل .

وعلى الجملة ، فالآية الكريمة تحدد مقصد الزائغين من قصر أنفسهم على اتباع المتشابه دون رجوع به الى المحكم ، وتقيد بالأصول ؛ تحدده بأمرين : الأول : هو فتنة الناس وتضليلهم بإيهامهم أن ما جاءوا به إنما هو من كتاب الله ؛ والثانى : هو إمالته حيث شاءوا ، والرجوع به الى ما يهوون ويشتهون .

ولما كان عدم رد المتشابه الى المحكم عند تأويله ، وأن يمال الى الهوى حيث يكون ، من لوازمه أن ما حملوه عليه من معنى جاروا به أهواءهم إنما هو معنى من عند أنفسهم ، فقد رد عليهم الله ذلك ، إذ قال : « وما يعلم تأويله إلا الله » ، فهو يريد أن يقول : إن هؤلاء الزائغين ليسوا هم الذين يعلمون تأويل هذا النوع من الآيات ، بل الله وحده هو الذى يعلم ذلك ، وقد وضع المحكم مآلا للمتشابه ومرجعا له فى تأويله حتى لا يعول على معنى مما يحمل عليه إلا المعنى الذى لا يتجاوز تلك الأصول ، ولا يتعدى تلك المحكمات .

وإنك ترى أنه ، بعد وضوح ذلك على ما قررناه ، أن قوله تعالى : « والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا » قد أصبح واضحا جليا . فان المراد حينئذ أن الذين

لا يعلمون ما يعلمون إلا علم حق ويقين ، فهم بذلك ثابتون على ما علموا لا يتقلقلون ، متمكنون منه لا يتزعزعون ، لا جرم يعرفون ربهم وما يجب له من شأن معرفة صحيحة ، وأنه محاسب كل أحد حسابا دقيقا ، وأنه مجاز كل إنسان بما عمل : فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره ، وأنه لا يعييه شيء فى الأرض ولا فى السماء ، وأن بيده ملكوت كل شيء ؛ ويعلمون كذلك الدنيا على حقيقتها ، فلم تفتنهم زهرتها ، ولم تغرهم زخارفها ، فهم بهذا يقولون : آمنا يا ربنا بمحكم كتابك ومتشابهه ، فإن المحكم والمتشابه كلاهما من عندك ؛ فكان علمهم الحق بربهم حتى قدروه حق قدره ، وبالدنيا حتى أنزلوها من أنفسهم منزلة تليق بها ، مانعاً لهم من أن يوجهوا المتشابه نحو أهوائهم ، ويؤولوه وفق أغراضهم ، تاركين المحكم وراءهم ظهريا .

هذا هو ما ينبغى أن تفسر به تلك الآية ، أما ما يذكره المفسرون فيها من معان يدل على عدم صحتها أنهم كلما خاطوها من ناحية تمزقت من ناحية أخرى ؛ وإلا فقل لى بربك كيف ينفهم أن القرآن الذى أنزله الله هداية للناس وإرشادا ، وتنظيما لحياتهم ، وتحقيقا لسعادتهم وترقيتهم ، كيف ينفهم أن يكون ذلك فيه غيرُ المفهوم كما يقولون ، إذ يرون أن المتشابه هو ما استأثر الله بعلمه ؟ قل لى بربك : أى فائدة من أن يكون فى الكتاب الذى أنزل لهذه الأغراض السامية غيرُ المفهوم ، وهو لا يحقق غاية من تلك الغايات ؟ ! وأى عقل ذلك الذى يسيغ أن ينزل الله كلاما غير مفهوم ، مع أن ذلك هو العبث بعينه ، والسفه الذى نضن عنه ببعض المخلوقين فضلا عن الخالق العظيم !

اللهم إن هذا ما لا ينبغى أن يقال فى جانب الله ذى العلم الشامل والحكمة البالغة ، وما لا ينبغى أن يمس به كتاب الله الذى من أخص أوصافه أنه المبين وأنه المفصل .

هذا ، وإننا لم يكن من غرضنا تفسير تلك الآية ، آية هو الذى أنزل عليك الكتاب ... ولكن عرضنا لهذا الإجمال فيها للمناسبة التى بينها وبين الآية التى نحن بصدد بيانها ، وقد تسنح لى فرصة أخرى لشرحها شرحا مفصلا .

بقى أنه لا يصح أن يكون أحد من علماء الاسلام بعد العلم بأن شريعتنا شريعة شاملة فى الزمان ، فهى الشريعة الباقية على مدى الأيام حتى ينتهى الليل والنهار ؛ وشاملة فى المكان فهى لجميع الناس أسودهم وأحمرهم ، عربيهم وعجميهم ، لا يصح أن يكون من علماء الاسلام بعد العلم بذلك من يجهل أن شريعة ذلك شأنها لا يكون من الضرورى لها أن تحتوى أمرين هما من مقتضياتها المحتومة . أما أول هذين الأمرين ، فهو أن يكون من نصوصها ذلك النوع الذى بيناه من النصوص وهو المتشابه ، أى الذى يحتمل أكثر من معنى واحد وهو ظنى الدلالة كما بينا ذلك سابقا ، حتى لا يحمل الناس فى مختلف العصور ، ولكل عصر مقتضيات ،

وفى مختلف البقع والأمكنة ، ولكل مكان ما يناسبه من نماذج العيش وأساليب الحياة ، حتى لا يحمل الناس والأمر كذلك على السير فى سبيل واحد ، لما فى ذلك ما لا يخفى من الحرج والإرهاق . وأما ثانى الأمرين ، فهو وجود التشريع ضمن مبادئ عامة وقوانين شاملة ، بأن تناط الأحكام بأوصاف ومعان يدور معها الحكم وجودا وعدماً ، حتى يعطى كل ما تلده الأيام من حوادث حكمه ، بأن يتبين ما فى الحادث من وصف ومعنى أهو مناط حظر وتحريم أم مناط طلب وتحتيم ، فما كان من المعقول أن يجتمع فى عهد الرسول كل حوادث الدنيا حتى ينص على حكم كل حادث على حدة .

وإنى بهذه المناسبة لحريص أن أرد على الذين قد فهموا خطأ أن القياس الفقهى دليل زائد على الكتاب والسنة ، وأبين أنهم فى فهمهم هذا جد مخطئين ، إذ القياس الفقهى ليس شيئا وراء تبين ما فى الحادث من مناط ليعلم أن ما ارتبط بذلك المناط من حكم هو الحكم لذلك الحادث . وسأتبع ذلك فى العدد القادم ببحث مستفيض كنت قد كتبته بمناسبة ما كتبه بعض العارضين لهذا البحث فاعتبروا القياس دليلا غير الوحى من كتاب وسنة . وفقنا الله للإخلاص حتى نهتدى به الى الحق والخير ، إنه سميع قريب ؟

« يتبع »

حامد محيسن

وصايا حربية

أوصى هارون الرشيد عبد الملك بن صالح أمير سرية حربية له فقال : أنت تاجر الله لعباده ، فكن كالمضارب الكيس إن وجد ربحا اتجر ، وإلا احتفظ برأس المال ، ولا تطلب الغنيمة حتى تحرز السلامة ، وكن من احتيالك على عدوك أشد خوفا من احتيال عدوك عليك .

هذه من خير الوصايا الحربية . والقصد منها عدم الاسراف فى سفك دماء رجاله لغير ما داع موجب ، والتعويل على حسن التدبير لحركاته ، فقد يحتال على العدو ويخيل اليه أنه يصيب بذلك منه مقتلا ، فيقع فى شر من الشرك الذى نصبه ، فان للعدو عقلا ونظرا كما له هو عقل ونظر . فاذا افترض أن عدوه لن يصل الى تقدير سائر حركاته ، كان مدعيا لنفسه من التفوق العقلى ما ليس له عليه دليل ، وهذه الحالة كثيرا ما أودت بالجيوش الجرارة ، وكانت سببا فى إذلال أمم عزيزة .

وقد شرح محارب مجرب هذه الحقيقة على نحو ما فصلنا فقال : احترس من تدبيرك على عدوك ، كاحتراسك من تدبيره عليك ، فرب هالك بما دبر ومكر ، وساقط فى الذى احتفر ، وجريح بالسلاح الذى شهر .

نظرات فى الادب العربى

جاهليه و إسلاميه

— ٦ —

الشعر العصرى أيضا

أسلفت أن الشعر العصرى قـد وقف أو كاد ، بعـد أن ذهب الرعيل الأول من رجاله الى جوار الله ؛ ووقفت عند تعليل هذا الوقوف ، وعرض أهم أسبابه . ولما لم أكن منفردا بهذا الرأى فى الشعر العصرى ، فأنى أذكر أولاً ما أورده النقاد المعاصرون من تعليل هذا الوقوف :

يرى قادة النقاد المعاصرين ، أن السبب فى وقوف الشعر بعـد شوقى وحافظ وأضرابهما من الشعراء الراحلين ، إنما مردّه إلى ضعف امتزاج الثقافتين : الغربية والعربية ، اللتين تتكون منهما الثقافة العصرية ، فشوقى وأضرابه ، أمكنهم أن يطعّموا الأدب القديم بالأدب الأجنبي ، إلى حـد ، فنجحوا فى مجاراة الثقافة العصرية نجاحهم المعهود ؛ والبارودى — وإن لم يجدد فى الشعر على هذا الوجه — إلا أن نجاحه إنما أتى من رجوعه بالشعر الى العصر البعيد الراقى ؛ فترسم آثار أبى نواس ، وأبى فراس ، والمتنبى ، والشريف الرضى ، من حيث الأغراض والمعانى ، وفحـولة اللفظ . فأما من جاء بعـد هؤلاء من الشعراء ، فهم بين رجلين : شاعر على النمط القديم ، لا يلائم شعره الذوق العصرى ، وآخر ممعن فى تقليد الشعر الافرنجى ، فى معانيه وأسلوبه وصوره وأخيلته ، ينبو عن شعره الذوق الشرقى ؛ لأن لـكل من الثقافتين مزاجا خاصا ، وطابعا خاصا ؛ فالثقافة الأفرنجية أكثر ما تعنى بالحياة الواقعية ، مع مجاراة الزمن ، والنظر الى المستقبل ؛ والثقافة العربية محافظة فى الاجتماع والسياسة ، وعنايتها بالماضى أكثر من عنايتها بالحاضر والمستقبل .

وعندى أن هـذا السبب — على قوته وفضل اعتباره — إنما يصلح تعليلا لعدم نجاح الشعراء المعاصرين نجاح شوقى وأضرابه ، وبقى تخلّفهم عن مجاراة البارودى غير معلل ، فأن ناقدا منصفا لا يستطيع أن ينكر شاعرية المغفور له الشاعر البدوى محمد عبد المطلب ، الذى كان عربى الثقافة ، وكان يجاذب أولئك الفحول أبراد التبريز والإجادة فى شتى المواقف الشعرية فى عصرنا الحاضر . كما لا يستطيع ناقد أن يجحد شاعرية الشاعرين العظيمين : حسن القاياتى ، وأحمد محرم ، وكلاهما عربى الثقافة ؛ ولئن شدا ثانيهما شيئا من اللغة الأجنبية ، إن ديباجة شعره لتردّه الى أساليب العصر الأموى ، لا العصر العباسى .

لا جرم أن امتزاج الثقافات ، طار بالشعر العباسى الى الذروة ، ولـكن عدم هذا الامتزاج أو قلته ، لم يقصّر بالشعر الأموى عن مساماته ، بل عن سبقه فى ميدان الإجادة كما سبقه فى الحياة ؛ ولم يقصر بشعراء الأندلس عن التبريز فى الشعر الرقيق ، وإن وقفوا دون شعراء الشرق فى الجزالة ، وقوة الأسر فى الغالب .

ولا يزال عندنا الأزهر ودار العلوم ، وثقافتهما تـكاد تكون عربية بحتة ، لم تطغ عليها الثقافة الأجنبية ، ولـكن جَوْدها ـ مع ذلك ـ بالشعراء المجيدين نزر فى هذا العهد الآخير . وعلى الجملة فتعليل وقوف الشعر ، بضعف امتزاج العنصرين المـكونين للثقافة الحاضرة ، هو التزام من النقاد المعاصرين لمذهبهم ، وهو طرح الأسلوب الشعرى القديم من الحساب ، لأنه أصبح لا يلائم الذوق العصرى كما سبق ؛ ولـكن رجال المدرسة القديمة لا يزالون على أن التزام عمود الشعر العربى شرط أساسى فى قبول الشعر ، وأن الشعر يهز من عواطفهم ، ويحرك من مشاعرهم ، بمقدار قربه من النهج القديم أسلوبا وخيالا ، وإن كانوا يفضلون التجديد القوى المتولد عن الهضم الـكامل لروائع الثقافة الأجنبية ، كما حصل فى العصر العباسى .

ورحم الله أبا عبادة البحترى ، إذ يقول ـ وقد عيب عليه أنه لم يسر على المنطق فى شعره :

كلفتمونا حـدود منطقكم والشعر يغنى عن صدقه كذبه
ولم يكن ذو القروح يلهج بالمنـ ـطق : ما نوعـه ، وما سببه
والشعر لَمْح ، تكفى إشارته وليس بالهَذْر طولت خطبه

لقد اصطلحت على الشعر فى عهده الحاضر أحداث عدة ، ليس أهمها عدم امتزاج الثقافتين ، وإن كان منها . فأن هذا الامتزاج إنما هو ضرورى ، أو قريب من الضرورى ، فى نقد الشعر ، وليس ضروريا فى إنشائه ؛ وعلى حد التعبير الحديث : فى الأدب الوصفى ، لا فى الأدب الإنشائى . ولعل أهم هـذه الأحداث ، هو تلك الموجة المادية الجارفة ، التى اجتاحت الشرق العربى ، وفى مقدمته مصر ، وافدةً من الغرب ، على أثر الحرب الـكبرى ، وتجلى العلوم الطبيعية فيها تجليا ، أظهر من الحقائق الواقعية ، ما هو أروع من الخيال ؛ وصرف وجـوه الناس عن ذلك الهدوء الروحى الذى كانت تنعم النفوس فى أفيائه ، وتسبح فى آفاقه الفِيح البواسم ، الى تلك السوق المصطخبة الزاخرة بضروب الملذات الجسمية المغرية ، التى أغنتهم بنعيمها المحقق ، عن ارتياد مسارح النعيم فى أخيلة الشعراء ؛ ومتى ضعف الخيال ، أو فقـد ، انهدم الركن الأول من أركان الشعر العربى منذ كان الشعر العربى ؛ ولا عجب أن يزدهر النثر ويقوى ، ويتسنم هـذه الذروة التى سما إليها على أنقاض شقيقه الشعر ، فلم يزل النثر الفنى منذ كان ، يرتـكز على عماد من العقل والمنطق ، رُفّعت من ذراه هذه الحضارة الطاغية ، التى سخرت الأرض والسماء ، والهواء والماء . بيد أن اندفاع تيار الطبيعية ، وطغيانه هذا الطغيان ، الذى كان أول

فرائسه الأمن ، قـوام كل أمر ، وملاك كل سعادة ، أعاد الى نفسى بواعث الأمـل ، فى أن المحنة العالمية القاسية التى تخـوض الأمم غمارها اليوم ، هى النهاية الفاجعة لفشل الحضارة الراهنة ، وهى الهضبة التى ستتكسر على صخورها أمواج الطبيعة الـكافرة الفاجرة ، وهى المرشد النصيح المهيب بهذا العالم المضطرب المذعور ، أن ينشد الأمن فى السماء ، بعد أن أعياه فى الأرض ، حتى فى عالم الخيال . أجل ، إن نتيجة هذا الهم الشامل ، وهذا البلاء النازل ، هو الايمان الـكامل ؛ وفى هذا الايمان ضمان لعودة المدنية الفاضلة : مدنية الحق ، والعدل ، والجمال .

***

يلى هذا السبب فى الأهمية ، ضعف الوازع الشعرى فى نفوس فحول الشعراء الأحياء من المدرسة القديمة والحديثة معا ؛ ولهذا الضعف أسباب ، منها خلو الميدان من أعلام الشعر ، وحاملى لوائه ، الذين كان فى منافستهم ، والوقوف بجانبهم ، مَراد فخار ، ومجال عظمة ، لغيرهم من الشعراء ؛ ومنها فوضى النشر ، وامتلاء السوق بالمتشاعرين ، واختلاط الأمر على القراء ، فى تمييز الشاعر من المتشاعر ؛ ورحم الله صحيفة كان نشرها للقصيدة ، إجازة كالإجازات العليا فى أيامنا هذه ، يستحق بها منشئها أن يسلَك فى نظام الشعراء ، تلك صحيفة المؤيد ، سقى الله أطلالها الدوارس ، وحَيَّا أعلامها الطوامس . . .

ومنها ، بطء التقرب بين ممثلى المدرستين : القديمة والحديثة ، فالمجددون يقابلون بفتور ، أو بنقد عنيف ، ما تجود به قرائح شعراء المدرسة القديمة ، وهؤلاء يسيئون الظن بـكل نقد يصدر عن أولئك ، وليس مع التنافر وسوء الظن تعاون ولا اطمئنان .

وليس بـأقل من السببين الآنفين ، أثر الإذاعة ، وإيثارها — بحكم موقفها من السواد الغالب فى الأمة — أقربَ أنواع الشعر من أفهام العـامة ، وإعراضها إعراضا تاما عن جزله ومحكمه ؛ وليس أقتل لنشاط الشاعر من إهمال آثاره الفـكرية ، فى حين يستبد بالحـظ من لا يساميه شعرا ، ولا يدانيه فخرا .

هذا ، الى ما أسلفنا فى غضون هـذه النظرات ، هو ما وصل بالشعر الى هذا الموقف ، الذى أصبح فيه جديرا بأن ينشد ، وأن ننشد معه :

أين امرؤ القيس والقـوافى	إذ مال من تحته الغبيط
استنبط العـرب فى المـوامى	بعـدك ، واستعـرب النبيط

عبد الجواد رمضان

حياة رجالات الإسلام

عبد الله بن الزبير

صرامته فى الحق — فصاحته — شجاعته

قلنا فى المقال السابق إن عبد الله بن الزبير كاد يتم له أمر الخلافة وتجتمع عليه الأمة لولا خلال عدها بعض المؤرخين نقصا فى استعداده لهذا المنصب الخطير ، وعددناها تساميا منه عن مزالق السرف ومضال السياسة الجائرة ، فـلا يضيره أن يكون أراد بالناس سياسة جده الصدّيق وعدل الفاروق ، ولم تكن له رعية الصديق ولا جند الفاروق . وإذا كان أبو خبيب قد أُتى من قِبل أطماع الناس وفساد ضمائرهم فانه قد ساعد على نفسه بما فتح من ثُغَـر بينه وبين أقرانه من الهاشميين ، بدأت بالمنافسة التى أذكتها المعاصرة ، وقد أخذت تشتد وتقوى حتى تحولت الى خصومة ظاهرة تؤرثها المفاخرة ، ويزيد أوارها المتربصون من الأمويين . روى ابراهيم بن محمد البيهقى فى كتاب « المحاسن والمساوى » : أن عبد الله بن عباس دخـل المسجد بعد مسير الحسين بن على الى العراق ، فإذا هو بابن الزبير فى جماعة من قريش قد استعلاهم بالـكلام ، فجاء ابن عباس حتى ضرب بيده بين عضدى ابن الزبير وقال : « أصبحت والله كما قال الأوّل :

يا لكِ من قُبّرة بمعمَر ... خلا لك الجو فبيضى واصفرى
ونقّرى ما شئت أن تنقرى ... قـد رُفع الفخ فماذا تحذرى

خلت الحجاز من الحسين بن على ، وأقبلت تهـدر فى جوانبها » . فغضب ابن الزبير وقال : « والله لـكأنك ترى أنك أحق بهذا الأمر من غيرك » . فقال ابن عباس : « إنما يرى من كان فى حال شك ، وأنا من ذلك على يقين » . فقال : « وبأى شىء تحقق عنـدك أنك أحق بهذا الأمر منى ؟ » قال ابن عباس : « لأنا أحق ممن يدل بحقه ، وبأى شىء تحقق عندك أنك أحق بها من سائر العرب إلا بنا ؟ » فقال ابن الزبير : « تحقق عندى أنى أحق بها منكم لشرفى عليكم قديما وحديثا » . فقال ابن عباس : « أنت أشرف أم من قد شرفت به ؟ » فقال ابن الزبير : « إن من شرفت به زادنى شرفا الى شرف قد كان لى قديما وحديثا » . قال ابن عباس : « أفمنى الزيادة أم منك ؟ » قال : « بل منك » . فتبسم ابن عباس ، فقال ابن الزبير : « يا ابن عباس دعنى من لسانك هـذا الذى تقلبه كيف شئت ، والله لا تحبونا يا بنى هاشم أبدا » . قال

ابن عباس : « صدقت ، نحن أهل بيت مع الله عز وجل لا نحب من أبغضه الله تعالى » . فقال ابن الزبير : « يا ابن عباس ما ينبغى لك أن تصفح عن كلمة واحدة » . قال : « إنما أصفح عمن أقر ، وأما عمن هرّ فلا ، والفضل لأهل الفضل » . قال ابن الزبير : فأين الفضل ؟ قال : « عندنا أهل البيت ، لا تصرفه عن أهله فتظلم ، ولا تضعه فى غير أهله فتندم » . قال ابن الزبير : « أفلست من أهله ؟ » قال : « بلى إن نبذت الحسد ، ولزمت الجدد » .

زادت هذه الخصومة شدة على مر الزمن ، ودفعت الهاشميين الى الامتناع عن بيعة ابن الزبير وإظهار الطعن عليه ، فشردهم ، وحبس زعماءهم ، ونفى قادتهم . قال صاحب العقد : « ولما توطد لابن الزبير أمره ، وملك الحرمين ، والعراقين ، أظهر بعض بنى هاشم الطعن عليه ، وذلك بعد موت الحسن والحسين ، فدعا عبد الله بن عباس ومحمد بن الحنفية وجماعة من بنى هاشم الى بيعته فأبوا عليه ، فجعل يشتمهم ويتناولهم على المنبر ، ثم قال لهم : لتبايعن أو لأحرقنكم بالنار ! فأبوا عليه ، فحبس محمد بن الحنفية فى خمسة عشر من بنى هاشم فى سجن عارم ؛ وفى ذلك يقول له كثير عزة وكان شيعيا :

تخبّر من لاقيت أنك عائذ بل العائذ المظلوم فى سجن عارم
سمىّ النبى المصطفى وابن عمه وفكاك أغلال وقاضى مغارم

وقال ابن عبد البر فى الاستيعاب : « إن ابن الزبير أخرج محمد بن الحنفية ونفى ابن عباس الى الطائف ، وقد كان لهذا النزاع أثر سيء فى فشل ابن الزبير وتفرق كثير من أصحابه عنه » .

أما شجاعة عبد الله بن الزبير ورباطة جأشه وفصاحة منطقه وبراعة بيانه ، فعن البحر حدث ولا حرج . ذكر ابن عبد ربه فى كتاب العقد : « أن عبد الله لما بلغه قتل مصعب صعد المنبر فجلس عليه ثم سكت ، فجعل لونه يحمر مرة ويصفر مرة ، فقال رجل من قريش لرجل الى جنبه : ماله لا يتكلم ؟ فو الله إنه للخطيب اللبيب ! فقال له الرجل : لعله يريد أن يذكر مقتل سيد العرب فيشتد عليه ذلك ، وغير ملوم . ثم تكلم عبد الله فقال : « الحمد لله الذى له الخلق والأمر ، والدنيا والآخرة ، يؤتى الملك من يشاء ، وينزع الملك ممن يشاء ، ويعز من يشاء ، ويذل من يشاء . أما بعد فإنه لم يعز من كان الباطل معه ولو كان معه الأنام طرا ، ولم يذل من كان الحق معه ولو كان فردا . ألا وإن خبراً من العراق أتانا فأحزننا وأفرحنا ، فأما الذى أحزننا فإن لفراق الحميم لوعة يجدها حميمه ثم يرعوى ذوو الألباب الى الصبر وكريم الأجر ، وأما الذى أفرحنا فإن قتل مصعب له شهادة ، ولنا ذخيرة ، أسلمه الطغام الصم الآذان أهل العراق وباعوه بأقل من الثمن الذى كانوا يأخذون منه ، فإن يقتل فقد قتل أخوه وأبوه وابن عمه وكانوا الخيار الصالحين . أما والله لا نموت حتفا كما يموت بنو مروان ، ولكن قعصا بالرماح وموتا تحت ظلال السيوف ! ألا إنما الدنيا عارية من الملك الأعلى الذى لا يبيد ذكره ،

ولا يذل سلطانه ، فإن تقبل الدنيا علىّ لم آخذها مأخذ الأشر البطر ، وإن تدبر عنى لم أبك عليها بكاء الخرِق المهين » .

خرج العراق بمقتل مصعب عن طاعة عبد الله ، وكانت الشام قد استتمت طاعتها لعبد الملك ابن مروان ، ولم يبق مع عبد الله غير الحرمين على ما فيهما من دخن ممن يوالى الهاشميين ؛ فلما رأى عبد الله ذلك جمع خاصته من القرشيين ليستشيرهم ، فقال لهم : ما ترون ؟ فقال رجل من بنى مخزوم : والله لقد قاتلنا معك حتى لا نجد مقيلا ، ولئن صبرنا معك ما نزيد على أن نموت ، وإنما هى إحدى خصلتين : إما أن تأذن لنا فنأخذ الأمان لأنفسنا ، وإما أن تأذن لنا فنخرج . فقال عبد الله : لقد كنت عاهدت الله أن لا يبايعنى أحد فأقيله بيعته إلا ابن صفوان . فقال له ابن صفوان : أما أنا فانى أقاتل معك حتى أموت بموتك ، وإنى لتأخذنى الحفيظة أن أسلمك فى مثل هـذه الحالة ! وقال له رجل آخر : اكتب الى عبد الله بن مروان ، فقال له : كيف أكتب ؟ من عبد الله أمير المؤمنين الى عبد الملك بن مروان ؟ فوالله لا يقبل هذا أبدا ! أم أكتب لعبد الملك بن مروان أمير المؤمنين من عبد الله بن الزبير ؟ فوالله لأن تقع الخضراء على الغبراء أحب إلىّ من ذلك ! فقال أخوه عروة بن الزبير وهو جالس معه على السرير : يا أمير المؤمنين قد جعل الله لك أسوة ، قال : من هو ؟ قال : حسن بن على ، خلع نفسه وبايع معاوية . فرفع عبد الله رجله وضرب بها عروة حتى ألقاه عن السرير وقال : قلبى إذاً مثل قلبك ! ! والله لو قبلت ما يقولون ما عشت إلا قليلا ، وقد أخذت الدنية ، وإن ضربة بسيف فى عز ، خير من لطمة فى ذل !

هذا موقف ليس فى حاجة الى التعليق على ما فيه من شجاعة ، وشرف نفس ، وقوة قلب ، واستهانة بالموت فى سبيل الكرامة والعقيدة . وليس بغريب على ابن أسماء الصديقية وابن الزبير حوارى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فثمة ما هو أعجب وأسمى ، وهو ما نحب أن نطيل التأمل فيه ، ونود بجدع الأنف لو أن كل مسلم ولا سيما الشباب أطال التأمل فيه وجعله مَثَله الأعلى فى تكوين رجولته ، وتعلّم منه كيف تكون الحياة العزيزة . وكذلك نود لو أن كل امرأة مسلمة جعلته شعارها فى تربية بنيها تربية صادقة الرجولة حتى يكون منهم للوطن الاسلامى عدة قوية فى هذا العصر الثائر الكلِب .

روى أبو عمر بن عبد البر فى الاستيعاب وجمهرة المؤرخين عن عروة بن الزبير وغيره ، قال : « لما كان قبل قتل عبد الله بن الزبير بعشرة أيام ، دخل على أمه أسماء وهى شاكية ، فقال لها : كيف تجدينك يا أمه ؟ قالت : ما أجدنى إلا شاكية ، فقال لها : إن فى الموت لراحة ، فقالت : لعلك تمنيته لى ، ما أحب أن أموت حتى يأتى علىّ أحد طرفيك ، إما قتلت فاحتسبك ، وإما ظفرت بعدوك فتقر عينى ! قال عروة : فالتفت إلىّ عبد الله فضحك ؛ فلما كان فى اليوم

الذى قتل فيه ، دخل عليها فى المسجد ، فقالت له : يا بنى لا تقبلن منهم خطة تخاف فيها على نفسك الذل مخافة القتل ، فوالله لضربة سيف فى عز خير من ضربة سوط فى الذل ! ! فقال عبد الله : يا أماه أما ترين ؟ خذلنى الناس ، وخذلنى أهل بيتى ، فقالت : لا يلعبن بك صبيان بنى أمية ، عش كريما ، ومت كريما ! ! ثم قبل رأسها وودعها ، وضمته الى نفسها ، فخرج من عندها وصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : « أيها الناس ! إن الموت قد تغشاكم سحابه ، وأحدق بكم ربابه ، واجتمع بعد تفرق ، وارجحن بعد تمشق ، ورجس نحوكم رعده ، وهو مفرغ عليكم ودقه ، وقاد اليكم البلايا تتبعها المنايا ، فاجعلوا السيوف لها غرضا ، واستعينوا عليها بالصبر » . ثم قال لعبد الله بن صفوان وكان صفيه : قد أقلتك بيعتى ، وجعلتك فى سعة ، فخذ لنفسك أمانا ؛ فقال ابن صفوان : مه ؟ والله ما أعطيتك إياها حتى رأيتك أهلا لها ، وما رأيت أحدا أولى بها منك ، فلا تضرب فتيان بنى أمية هذه الصلعة أبدا ! ثم دخل ابن الزبير بيته فنام ، فجاء ابن صفوان وقد دنا أهل الشام من المسجد فاستأذن ، فقالت الجارية : هو نائم ، فقال ابن صفوان : أوليلة نوم هذه ؟ ! أيقظيه ! فلم تفعل ، فأقام ثم استأذن ، فقالت : هو نائم ، فانصرف ثم رجع آخر الليل وقد هجم القوم على المسجد ، فخرج ابن الزبير فقال : والله ما نمت منذ عقلت الصلاة نومى هذه الليلة وليلة الجمل ، ثم دعا بالسواك فاستاك متمكنا ، ثم توضأ متمكنا ولبس ثيابه ، ثم قال : أنظرنى حتى أودع أم عبد الله فلم يبق شىء ، وكان يكره أن يأتيها فتعزم عليه أن يأخذ الأمان ، فدخل عليها وقد كف بصرها ، فسلم ، فقالت : من هذا ؟ فقال : عبد الله ، فتشممته ، ثم قالت : يا بنى لا ترض الدنية ، فإن الموت لا بد منه ! قال : إنى أخاف أن يمثلوا بى ، قالت : إن الكبش إذا ذبح لم يحف السلخ !

ثم خرج وقد جعل له مصراع عند الكعبة فكان تحته ، فقال له رجل من قريش : ألا نفتح لك باب الكعبة فتدخلها ؟ فقال عبد الله : من كل شىء تحفظ أخاك إلا من نفسه ، والله لو وجدوكم تحت أستار الكعبة لقتلوكم ، وهل حرمة المسجد إلا كحرمة البيت ؟ ثم تمثل :

ولست بمبتاع الحياة بسُبَّة ... ولا مرتق من خشية الموت سلّما

ثم شد عليه أصحاب الحجاج ، فقال : أين أهل مصر ؟ فقالوا : هم هؤلاء من هذا الباب ، لاحد أبواب المسجد ، فقال لأصحابه : اكسروا أغماد سيوفكم ، ولا تميلوا عنى ، فإنى فى الرعيل الأول ، ففعلوا ، ثم حمل وحملوا معه ، وكان يضرب بسيفين ، فقال رجل يقال له خلبوب لأهل الشام : أما تستطيعون إذا ولاكم ابن الزبير أن تأخذوه بأيديكم ؟ قالوا : ويمكنك أنت أن تأخذه بيدك ؟ قال : نعم ، قالوا : فشأنك ، فأقبل وهو يريد أن يحتضنه ، فاستقبله ابن الزبير بضربة قطع بها يده . فقال خلبوب : حسّ ! فقال ابن الزبير : اصبر

خلبوب ! ثم دخل عليه أهل حمص من باب بنى شيبة ، فقال : من هؤلاء ؟ فقالوا : أهل حمص ، فشد عليهم حتى أخرجهم وهو يرتجز :

لو كان قِرنى واحدا كُفيته أوردته الموت وقد ذكيته

ثم دخل عليه أهل الأردن من باب آخر ، فجعل يضربهم بسيفه حتى أخرجهم من المسجد ، ثم انصرف وهو يقول :

لا عهد لى بغارة مثل السيل لا ينجلى قتامها حتى الليل

فأقبل عليه حجر من ناحية الصفا وهو منصرف فضربه بين عينيه ، فنكس رأسه وهو يقول :

ولسنا على الأعقاب تدمى قلوبنا ولكن على أقدامنا يقطر الدم

فلما علم أصحاب الحجاج بمقتله كبروا ، فقال عبد الله بن عمر : ما هذا ؟ قالوا : أهل الشام يكبرون لقتل عبد الله بن الزبير ، فقال ابن عمر : الذين كبروا لمولده خير من الذين كبروا لقتله .

وروى أن عبد الله بن عباس قال لقائده : جنبنى خشبة ابن الزبير ، فلم يشعر ليلة حتى عثر فيها ، فقال : ما هذا ؟ فقال : خشبة ابن الزبير ، فوقف ودعا له ، وقال : « لئن علتك رجلاك لطالما وقفت عليهما فى صلاتك » ثم قال لأصحابه : « أما والله ما عرفته إلا صوّاما قواما » .

وروى ابن القاسم عن مالك أنه كان يقول : « ابن الزبير كان أفضل من مروان ، وكان أولى بالأمر من مروان ومن ابنه » .

وقال مجاهد : « كان ابن الزبير إذا قام للصلاة كأنه عمود ، وكان يواصل من الجمعة الى الجمعة ، وما كان باب من العبادة إلا تكلف ، ولقد جاء سيل بالبيت فرأيته يطوف سباحة » .

وقال عمرو بن دينار : « ما رأيت مصليا أحسن صلاة من ابن الزبير » .

صادق ابراهيم عرجون

فضيلة العفو

كان المأمون بن هارون الرشيد غاية فى العفو حتى إنه قال : لو علم الناس حبى للعفو لتقربوا الىّ بالجرائم .

وقال هو أيضا : والله إنى استلذذت العفو استلذاذا أظن أن الله لا يأجرنى عليه .

نقول : العفو من كرائم الخصال ، وقد حض الله عليه ، ولكن فى الحال التى يغلب الظن فيها أنه يكون أنفع للمذنب وللناس من العقوبة . أما إذا كان العفو مجرد هوى للنفس يضعه الانسان حيث يفسد الأخلاق ، ويشيع الرذيلة ، ويزعج الأمن ، انقلب العفو الى جريمة .

التجديد والمجددون فى الاسلام

من القرن الأول الهجرى الى عصرنا الحاضر

الامام الاعظم أبو حنيفة

دراسات فى مذهبه

١ — هل كان يستعمل أبو حنيفة الرأى ويقدم القياس على النص ؟

زعم بعض المتعصبين أن الإمام الأعظم كان يستعمل الرأى ويقـدم القياس على النص ؛ ولو فهموا مدارك مذهب أبى حنيفة ، وحقيقة الرأى ، ما قالوا هذا القول غير الصحيح ، بل كان إفراطهم وتجاوزهم الحد فى ذم أبى حنيفة ينقلب إلى مدحه والثناء عليه ؛ فليس الرأى بمذموم ولا القياس إلا إذا لم يكن مندرجا تحت أصل من أصول الشريعة ، ولم يصادف قاعدة من قواعدها ؛ وكل كلام شهدت له الشريعة بالصحة ، أو وافق الأصول ، أو اندرج تحت القواعد ، فهو من السنة وليس من الرأى المذموم . جاء فى السنن الـكبرى للبيهقى فى باب القضاء : أن الرأى المذموم هو كل ما لا يكون مشبها بأصل . وعلى ذلك يحمل كل ما ورد فى ذم الرأى . وأبو حنيفة فى دينه وورعه لا يعقل أن يتخطى دائرة هذا الأصل . والمعروف عنه بالدليل أنه لم يكن يقدم رأيا أو قياسا على نص . ولا أدلّ على هذا من قوله : إنه يأخذ أولاً بما فى القرآن الـكريم ، فإن لم يجد فبالسنة ، فإن لم يجد فبقول الصحابة ، فإن اختلفوا أخذ بما كان أقرب إلى القرآن أو السنة من أقوالهم ، ولا يخرج عنهم ، فإذا لم يجد لأحد منهم قولا اجتهد رأيه فى دائرة أصـول الشرع ؛ حتى إنه قال : عجبٌ للناس ! ! يقـولون إنى أفتى بالرأى ، ما أفتى إلا بالأثر .

ويقول ابن حزم : جميع أصحاب أبى حنيفة مجمعون على أن مذهب أبى حنيفة أن ضعيف الحديث أولى عنده من القياس والرأى .

ويقول الامام أبو جعفر البلخى : فهذا الذى رويناه — وهو تأخير القياس عن الـكتاب والسنة وأقضية الصحابة — هو النقل الصحيح عن أبى حنيفة .

ويقول الامام الجلال السيوطى : إن الامام أبا حنيفة كان يقـدم الحديث على القياس ، بل كان يقدم الآثار على القياس فضلا عن الأحاديث ، وأقضية الصحابة كلها من قسم الآثار ؛ فـكان لا يقيس إلا إذا لم يجد دليلا للمسألة فى كتاب ولا سنة ولا فى أقضية الصحابة .

ويقول الامام أبو مطيع : كنت جالسا مع الامام أبى حنيفة فى جامع الكوفة ، فدخل عليه سفيان الثورى وجعفر الصادق وغيرهما من الفقهاء ، فقالوا لأبى حنيفة : بلغنا أنك تكثر من القياس فى الدين وأول من قاس إبليس . فناظرهم الإمام يوم الجمعة من بكرة النهار إلى قرب الزوال ، وعرض عليهم مذهبه ، وقال : إنى أقدم العمل بالكتاب ثم بالسنة ثم بما اتفق عليه الصحابة ، فإذا اختلفوا قِسْتُ حينئذ . فقالوا له : أنت سيد العلماء ، فاعف عنا ما مضى من وقيعتنا فيك بغير علم .

أما ماروى عن الإمام أبى حنيفة من قوله : « رأينا هذا أحسن ما قدرنا عليه ، فمن جاء بأحسن منه فهو أولى بالصواب منا » ، وقوله : « هذا الذى نحن فيه رأى لا نجبر عليه أحدا ولا نقول يجب على أحد قبوله ، فمن كان عنده أحسن منه فليأت به نقلده » ، فالمراد بهذا الرأى ما هو واضح مما تقدم من أنه لا يجتهد رأيه إلا عند فقد النص ، حتى قال هو نفسه : « هذا القياس الذى نحن فيه نطلب به اتباع أمر الله تعالى، لأنا نرده الى الكتاب أو السنة أو اتفاق الصحابة ثم نجتهد الرأى بعد ذلك عند فقد النص » . وقد قال الإمام الشعرانى : لم يزل الأئمة كلهم ومقلدوهم يقيسون فى الأحكام الى وقتنا هذا من غير نكر حيث لم يجدوا دليلا نصا فى المسألة ، بل جعلوا القياس أحد أدلة الشريعة كما قال الامام الشافعى : « إذا لم نجد دليلا فى المسألة قسناها على الأصول » .

فلا خصوصية للإمام أبى حنيفة فى اعتراض بعض المتعصبين عليه من هذه الناحية ؛ ثم إن صح الدليل بعده فى تلك المسألة فانه معذور ، وفيما إذا وجد حديثا ولم يصح عنده فقاس فى تلك المسألة على أصل صحيح ، لأن القياس على الأصول أقوى عند بعضهم من خبر الآحاد الصحيح فكيف بالضعيف ؛ وقد كان الامام أبو حنيفة يشترط فى الحديث المنقول عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل العمل به أن يرويه عن الصحابى جمع عن مثلهم ، وهكذا اعتقاد كل منصف فى الامام الأعظم .

ويحتمل أن الذى أضاف الى الإمام أبى حنيفة أنه يقدم القياس على النص ظفر بذلك فى كلام بعض مقلديه الذين يجمدون على القياس المنقول عن إمامهم ولا يخالفونه كما عليه غالب المقلدين ويقولون : إن الإمام لم يأخذ بهذا الحديث ؛ فلما رأى المعترض ذلك فى كلام بعض المقلدين ظن أن ذلك مذهب للامام فعزاه إليه لجهله بحقيقة المذهب .

على أن غالب قياسات الإمام أبى حنيفة من القياس الجلى الذى يعرف به موافقة الفرع للأصل بحيث ينتفى احتمال افتراقهما . على أن كل معترض على الامام أبى حنيفة كما قال الامام الشعرانى جاهل بمدارك الامام ؛ وكما قال : لقد تتبعت المسائل التى قدم فيها المقلدون من الحنفية القياس على النص فوجدتها قليلة جدا ، وبقية المذهب كله فيه تقديم النص على القياس ، ولا

خصوصية لمذهب أبى حنيفة فى ذلك . وهـذا هو الامام الليث بن سعد يقول : « أحصيت على مالك بن أنس سبعين مسألة كلها مخالفة للسنة مما اجتهد فيها برأيه » . وقد روى ابن أبى العوام عن نصر بن يحيي البلخى قال : قلت لأحمد بن حنبل : ما الذى نقمتم على أبى حنيفة ؟ قال : الرأى . قلت : فهـذا مالك ألم يتكلم بالرأى ؟ قال : بلى ولـكن رأى أبى حنيفة خلد فى الـكتب . قلت : فقد خلد رأى مالك فى الـكتب أيضا . قال : أبو حنيفة أكثر رأيا منه . قلت : فهلا تكلمتم فى هذا بحصته وهذا بحصته ؟ فسكت .

فان كان أبو حنيفة استعمل الرأى على الوجه المتقدم ، فهذا مالك وهذا الشافعى تكلم كل منهما بالرأى على الوجه المذكور أيضا ؛ فمعظم الأدلة التى أخذ بها الامام أبو حنيفة هى التى أخذ بها كل إمام ، وما انفرد بعضهم عن صاحبه إلا ببعض أحاديث ، وكلهم فى فلك الشريعة يسبحون. فالعاقل من أقبل على أقوال أبى حنيفة وأقوال جميع الأئمة وعمل بها بانشراح صدر لأنها لا تخرج عن مرتبتى الشريعة اللتين هما : التخفيف والتشديد . ولقد قال الامام الشعرانى : لقد بلغنا كل أقوال الإمام أبى حنيفة فما رأيت فيها قولا إلا وهو مستند الى صريح آية أو حـديث أو أثر أو مفهوم أو الى قياس على أصل صحيح ، وما رأيته استدل بحـديث ضعيف ، وإنما يستدل به إذا كثرت طرقه ، ولا خصوصية له بذلك بل يوافقه جميع الأئمة ؛ وقـد ثبت مدح الامام مالك ومدح الامام الشافعى لأبى حنيفة ، فلا عبرة باعتراض غيرهما على بعض أقواله .

٢ — أبو حنيفة عَـلَم المجدّدين — مدرسة الرأى وأئمتها :

على أنا لو سلمنا أن أبا حنيفة كان يجعل للرأى والقياس — فى حدود الشرع — اعتبارا ، ويحلها المـكان الأرفع ، فلا خصوصية له فى ذلك . وهـذا شأن المجددين — والاسلام دين تجديد وإصلاح ونهضة ، بنص الحديث السابق نشره — الذين لا يعرفون الجمود ، ويعتقدون أن الشريعة الاسلامية صالحة لـكل زمان ومكان ، وما من حادثة تحصل إلا ويمكن تطبيقها على قواعدها ومبادئها العامة ، وإيجاد حكم لها فيها مهما كانت هـذه الحادثة ، ولا تخدم شريعة الله تعالى بأفضل من هذا . ولم ينفرد أبو حنيفة باعتبار الرأى والقياس وإنزالهما المـكان الأسمى ، فقد ورد عن الصحابة رضى الله تعالى عنهم من اجتهاد الرأى والقياس على الأصول عند عدم النص ما يطول ذكره ؛ ونقل عن كثير من كبارهم وأعيانهم قضايا أفتوا فيها برأيهم ، كأبى بكر وعمر ، وزيد بن ثابت وأبىّ بن كعب ومعاذ بن جبل وغيرهم . والمتتبع لما ورد عن السلف يرى أن الذى كان يحمل لواء مدرسة الرأى عند فقد النص : عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه ، فـكان إذا أعياه أن يجد فى القرآن والسنة نَـظَـر هل كان فيه لأبى بكر قضاء ، فان وجد قضى به ، وإن لم يجد دعا رءوس الناس ، فاذا اجتمعوا على أمر قضى به . وجاء فى المبسوط للسرخسى « أن عمر كان يستشير الصحابة مع فقهه حتى إذا رفعت إليـه حادثة قال : ادعوا لى عليا ،

وادعوا لى زيدا . . . فكان يستشيرهم ثم يفصل بما اتفقوا عليه » . وأشهر من سار على طريقة عمر « عبد الله بن مسعود » ومعلوم أن علم أهل العراق كان عن عبد الله بن مسعود ، وأن مدرسة العراق أومدرسة الرأى توجت بأبى حنيفة ؛ وإذا تتبعنا تسلسل هذه المدرسة وجدنا أن أبا حنيفة أخذ عن حماد بن أبى سليمان ، وحماد أخذ عن إبراهيم النخعى ، وابراهيم أخذ عن علقمة بن قيس ، وعلقمة أخذ عن عبد الله بن مسعود ، وعبد الله أخذ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان صلى الله عليه وسلم يجتهد رأيه حيث لا يكون وحى ، كما ترى هذا فى مسألة أسرى بدر ، لأنه لو كان صلى الله عليه وسلم حكم فيها بمقتضى الوحى ما عوتب فى هؤلاء الأسرى . فمنبع العلم والتربية فى الاسلام ، ومصدر التشريع والحكمة ، هو رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال المزنى : الفقهاء من عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم الى يومنا هذا استعملوا المقاييس فى الفقه فى جميع الأحكام فى أمر دينهم ، وأجمعوا على أن نظير الحق حق ، ونظير الباطل باطل ، فلا يجوز لأحد إنكار القياس لأنه التشبيه بالأمور والتمثيل عليها .

وقال الحافظ ابن عبد البر : لا خلاف بين فقهاء الأمصار فى إثبات القياس فى الأحكام إلا من شذ ؛ وممن حفظ عنه أنه قال وأفتى مجتهدا رأيه وقايسا على الأصول فيما لم يجد فيه نصاً من التابعين :

أولاً — من أهل المدينة : سعيد بن المسيب ، وعروة بن الزبير ، وأبان بن عثمان ابن عفان ، وابن شهاب ، وأبو الزناد ، والإمام مالك بن أنس وأصحابه ، وابن أبى ذئب ، وابن دينار ، وابن الماجشون ، والقاسم بن محمد ، وسالم بن عبد الله بن عمر ، وربيعة الرأى .

ثانيا — ومن أهل مكة واليمن : عطاء ، ومجاهد ، وطاوس ، وعكرمة ، وعمرو بن دينار ، وابن جُرَيج ، ويحيى بن أبى كثير ، وابن عيينة ، ومسلم بن خالد ، والإمام الشافعى .

ثالثا — ومن أهل الكوفة : علقمة ، والأسود ، وشريح القاضى ، ومسروق ، وابراهيم النخعى ، والشعبى ، وسعيد بن جبير ، وحماد بن أبى سليمان ، وابن المبارك ، وسائر الكوفيين .

رابعاً — ومن أهل البصرة : الحسن ، وابن سيرين ، وإياس بن معاوية ، وعثمان البتى ، وسوار القاضى .

خامساً — ومن أهل الشام : مكحول ، والأوزاعى .

سادسا — ومن أهل مصر : الليث بن سعد ، وابن وهب ، وابن القاسم : وأشهب ، وابن عبد الحكم ، وسائر أصحاب الإمام مالك ؛ وأصحاب الامام الشافعى : المزنى والبويطى والربيع ، وغير هؤلاء من علماء الأمصار .

فعلم مما تقدم أن الامام أبا حنيفة لم يقدم الرأى على النص ، ولم ينفرد بالقول بالقياس على الأصـول ، بل على ذلك كثير من الصحابة والتابعين وفقهاء الأمصار ؛ وسقط قول من عاب الامام أبا حنيفة بذلك جمودا منه وعدم إدراك لمدارك مذهبه ؛ وما كان أبو حنيفة جامدا ، ولـكنه كان عَلَم المجددين ، وحاملا لواء التجديد ، وخير من يعمل للشريعة الاسلامية لجعلها جديدة دائما ، صالحة لـكل زمان ومـكان ، سادّة حاجات البشر وجميع حوادث الحياة المتجددة فى كل يوم ؟

السيد عفيفى

اختيار الاخوان

قال الفضيل بن عياض : من سخافة عقل الرجل كثرة معارفه .

هذه كلمة يفهمها من كان له قلب ، فإن لمعرفة الناس واجبات لا يصح التقصير فيها ، وإلا انقلب ودهم الى عـداوة . فمن كثر معارفه كان منهم فى شغل دائم لا يكاد يفرغ لعمل صالح يؤديه لوطنه ولنفسه ولأهله . لأنه لا يخلو أن يكون منهم مريض ، يجب أن يعوده ، وعائد من سفر ، ينبغى أن يهنئه بالسلامة ، ومصاب بكارثة ، لا بد من مواساته ، ومحتاج لمعونة ، يفرض عليه أن يـكون عند ظنه به ، الى غير هذه الأصول مما لا يمكن حصره ، فإذا قام بهذا كله لم يبق له وقت ينظر فيه لمصلحة عامة ولا خاصة . ولا سبب للتورط فى هـذه العـلائق إلا حب الظهور ، وهو داء دوى يؤدى الى عكس المراد منه . فـكيف لا يكون من سخافة العقل التمادى فيه ؟

أليس الامام عبد الله بن المبارك أكيسَ النـاس حين أجاب من سأله : ألا تستوحش من ملازمتك لـكتبك وتركك الناس ؟ فقال : كيف أستوحش وأنا أجالس الله تعالى والملائكة والأنبياء والخلفاء والعلماء والأولياء والشهداء ، أفترون أن أدع مجالسة هؤلاء وأجالسكم ؟

وممن بنى على الأساس الذى وضعه الفضيل بن عياض ، حفص بن حميد ، حيث قال : من لم ينقص كل يوم صديقا لا يفلح أبدا .

والقصد فى هـذا أن لا ينقطع الانسان عن النـاس ، وأن لا ينهمك بهم ، وأن يتخذ بين ذلك سبيلا .